

# بلاد الروم

قبل الفتح الاسلامي وفي ايامه

الوارث الركن محمد سبت خطاب

(عضو الجمع)

## الموقع والحدود

كان المسلمون يسمون اقاليم الدولة البيزنطية في جملتها : بلاد الروم .  
ولفظ : الرومي أي الروماني في العصور الاسلامية الاولى ، كانت ترادف عند  
المسلمين كلمة : المسيحي أو النصراني . سواء كان الموصوف بها من اليونان  
أو اللاتين .

وكانوا يسمون البحر الابيض المتوسط : بحر الروم ، اسماً لا يقرب  
الاقاليم المسيحية من بلاد الاسلام .

ومن ثم صارت بلاد الروم اسماً : لآسيا الصغرى عند العرب ، وهي  
البلاد العظيمة التي انتقلت نهائياً في نهاية السنة المئاة الخامسة الهجرية (القرن  
الحادي عشر الميلادي) الى أيدي المسلمين باستيلاء الراجقة عليها .

وكانت الحدود بين بلاد المسلمين وبلاد الروم في أيام بني أمية وبني  
العباس ، بل حتى قبل أن يقضي المغول القضاء المبرم على الدولة العباسية في  
بنداد بما ينيف على قرن ونصف قرن ، تتألف من سلسلتى جبال طوروس  
وجبال طوروس الداخلة (أتى طوروس) . وكان يحده هذه الحدود ويحيطها

## الواء الركن محمود شيت خطاب

خط طويل من القلاع التي تعرف بالثغور ، يمتد من ( ملطية ) على الفرات الأعلى ، الى ( طرسوس ) بالقرب من ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وكان المسلمون يفتحون هذه القلاع تارة ويحتلها الروم تارة أخرى .

وتنقسم هذه القلاع الى مجموعتين ، احدهما تحمي الجزيرة ، وتسمى : ثغور الجزيرة ، وهي الشمالية الشرقية ، والثانية تحمي الشام ، وتسمى : الثغور الشامية ، وهي الجنوبية الغربية .

وكان من ثغور الجزيرة : ملطية ، وزبطرة ، وحصن منصور ، وبهنا ، والحدث<sup>(١)</sup> . ثم مرعش ، والهارونية ، والكنيسة وعين زربة ( عين زربي ) ، وهي الثغور الشامية ، أما الثغور الشامية التي بالقرب من الساحل لخليج الاسكندرونة فهي : المصيصة ، وأذنة ، وطرطوس .

يحددها من الغرب : بحر الروم وخليج القسطنطينية وبحر القرم ، ومن الجنوب بلاد الشام والجزيرة ، ومن الشرق ارمينية ، ومن الشمال بلاد الكرج وبحر القرم .

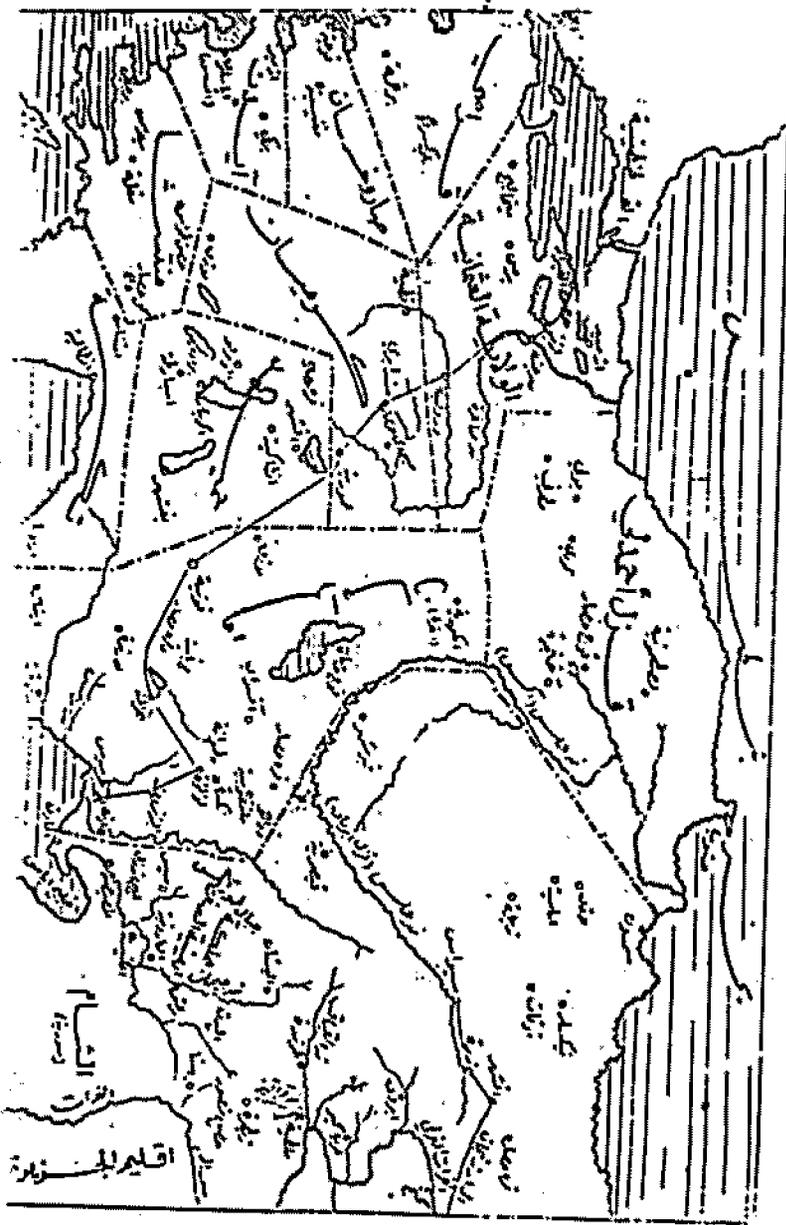
## الثغور الشامية

١ - مرعش :

سماها الروم : ( مراسيون Marasion ) ، ويقال انها قامت في موضع جرمانيقية .

وهي مدينة من الثغور بين الشام وبلاد الروم ، لها سوران وخندق ، وفي

(١) انظر ما ورد عن هذه الثغور في بحث : بلاد الجزيرة قبل الفتح الاسلامي وفي ابامه .



اللواء الركن محمود شيت خطاب

وسطها حصن عليه سور يعرف بالرواني بناه مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، ثم حصنها هرون الرشيد أيضا .

٢ - عين زَرْبِي = عين زَرْبَة :

بلد يشبه مدن الفور ، بها نخيل ، وهي خصبة واسعة الثمار والزروع والمراعي ، ولها سور مكين ، تقع في الجبل ، ذات قلعة مستعلية عنها ، وهي من الثغور من نواحي المصيصة .

٣ - الهارونية :

مدينة صغيرة بالقرب من مرعش بالثغور الشامية في طرف جبل اللكام ، استحدثها هرون الرشيد ، وعليها سوران وأبواب حديد . وجبل اللكام : اسم اطلقه البلديون المسلمون على سلسلة جبال أتى طوروس .

٤ - الكنيسة :

بلد بئر المصيصة ، ويقال لها : الكنيسة السوداء ، وسيت بالسوداء ، لأنها بنيت بحجارة سود ، بناها الروم قديما ، وبها حصن منيع قديم أخرج فيها أخرج منها ، ثم أمر هرون الرشيد ببنائها واعادتها الى ماكانت عليه وتحصينها ، وندب اليها المقاتلة ، وزادهم في العطاء ، بينها وبين الهارونية اثنا عشر ميلا .

٦ - المصيصة :

حصن على ساحل البحر قرب المصيصة ، سى : المثقب ، لأنه في جبال كلها مثقبة فيها كوى كبار ، وكان أول من بنى حصن المثقب هشام بن عبدالمك .

٦ - المصيصة :

مدينة على شاطئ جيجان من ثغور الشام بين انطاكية وبلاد الروم ، تقارب

## بلاد الروم

طرسوس ، وهي من ثغور الاسلام ، ذات سور وخسة أبواب ، فتحها عبدالله ابن عبدالمك وبنى حصنها على أساسه القديم ، ووضع فيها سكانا من الجنيد من أرباب البأس والنخوة ، وبنى فيها سجدا فوق تل الحصن . وبعد وقت قصير من فتحها نشأ في الجانب الآخر من نهر جيحان (نهر بيرامس) ربض أو ضاحية جديدة سبت : كفريا ، بنى فيها عمر بن عبدالعزيز جامعا اتخذ فيه صهريجا ، ثم أن مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية أنشأ ربضا ثالثا في شرقي نهر جيحان يقال له : الخصوص ، وبنى عليه حائطا وأقام عليه باب خشب ، وخذقَ خندقا .

٧ - أذنة :

بلد من الثغور قرب المصيصة ، تقع على نهر سيحان (نهر سارس) ، وهي مدينة خصبة عامرة حصينة .

٨ - طرسوس :

مدينة من أهم مدن الثغور الشامية ، تقع بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم ، بينها وبين أذنة ستة فراسخ ، عليها سوران وخذق واسع ، ولها ستة أبواب ، وهي تشرف على الدرب المشهور عبر طوروس .

وعني الخلفاء العباسيون الأولون ، ولاسيما المهدي وهرون الرشيد بتحسين طرسوس وشحنها بالرجال .

## المدن الأخرى

١ - العلايا :

بلدة محدثة ، أنشأها علاءالدين أحد ملوك السلاجقة فنسبت إليه ،

ف قيل لها : العلائية ، ثم خففها الناس وقالوا : العلايا •

وهي بلدة صغيرة على بحر الروم ، وهي من فرض تلك البلاد ، وهي في الجنوب من أنطالية على مسيرة يومين منها ، عليها سور ، وهي كثيرة المياه والساتين ، ومساحتها أصغر من انطالية •

٢ - أنطالية :

بلدة كبيرة من مشاهير بلاد الروم ، وهي حصن من حصون الروم المنيعة تقع على بحر الروم ، ولها بابان الى البحر والى البر ، والمياه جارية بداخل البلد وخارجه ، ولها باتين كثيرة من المحضات وأنواع الفواكه ، تقع غربي قونية وعلى مسافة عشرة أيام منها •

٣ - أنقرة :

اسم للمدينة المسماة : أنكورية ، وهي بلدة لها قلعة على تل عال ، وليس لها ساتين ولا ماء سرح ، وشرب أهلها من آبار نبع قرية المدى ، وبين أنقرة وقطمونية خسة أيام : قطمونية في الشرق والشمال ، وأنقرة في الغرب والجنوب •

وهي مدينة قديمة ، ورد ذكرها في شعر امرئ القيس ، كما ورد ذكرها في شعر أبي تمام الطائي أيضا •

٤ - عمورية :

بلدة كبيرة ، ولها قلعة داخلها حصينة ، وأكثر ساكنيها التركمان ، وبها ساتين قليلة ، ولها عين ونهر ، وهي التي فتحها المعتصم الخليفة العباسي في سنة (٢٢٣ هـ) وفتح أنقرة بسبب أسر العلوية في قصة طويلة معروفة ، وكانت من أعظم فتوح الاسلام •

٥ - آقشار = آق شكير :

من أنزه المدن ، وبها باتين كثيرة وفواكه مفضلة ، تبعد عن قونية ثلاثة أيام شمالا بغرب .

٦ - قونية :

مدينة مشهورة ، لها جبل في جنوبها ، ينبع منه نهر ويدخل الى قونية من غربها ، ولها باتين من جهة الجبل يقرب من ثلاثة فراسخ ، وبقلعتها تربة افلاطون الحكيم ، ونهرها يسقى باتينها ثم تصير مياهه بحيرة ومروجا ، والجبال دائرة بها من كل جانب ، وتبعد عنها من جهة الشمال ، والفواكه بها كثيرة ، وهناك المشمش المعروف بقمرالدين .

٧ - قيسارية = قيسارية :

بلدة كبيرة ذات أشجار وباتين وفواكه وعيون تدخل إليها ، وداخلها قلعة حصينة ، وبها دار للسلطنة ، وهي منسوبة الى قيصر ، وفي شرقها مدينة سيواس ، وبين قيسارية وأقصرا أربعة مراحل .

٨ - أقصرا = أقصرا :

بلدة في عرض آقشار وأطول منها ، كثيرة الفواكه ، تحل منها الى قونية على العجل في بسط من الارض كلها مراعى وأودية ، بينها وبين قونية ثمانية وأربعون فرسخا وكذلك من أقصرا الى مدينة قيسارية ، وبين أقصرا وقونية ثلاث مراحل .

وهي ذات أشجار وفواكه كثيرة ، ولها نهر كبير داخل في وسط البلد ، ويدخل الماء الى بعض بيوتها من نهر آخر ، ولها قلعة كبيرة حصينة في وسط البلد .

٩ - هرقلية :

بلدة في شرقي نهر ينزل من جبل العالايا الى آخر سنوب ، وهرقلة تقع قرب البحر ، وفي شرقيها جبل الكيف ، ويقال : ان فيه الكيف الذي ورد ذكره في القرآن الكريم في سورة الكهف .

١٠ - أماسية :

بلدة كبيرة ، لها سور وقلعة وبساتين ونهر كبير ونواعير تسقى بها ، مشهورة بالحسن وكثرة المياه والكروم والبساتين ، بينها وبين سنوب ستة أيام ، فيها معدن النضة .

١١ - مكطية :

بلدة ذات أشجار وفواكه ارضها تحف بها جبال كثيرة الجوز ، وسائر الثمار مباحة لا مالك لها ، وهي قاعدة الثغور ، مسورة في بسط من الارض والجبال تحف بها من بعد ، ولها نهر صغير عليه بساتين كثيرة يسقى ويسر بسور البلد ، وهي شديدة البرد ، تقع في جنوبي سيواس بينما ثلاث مراحل ، وفي شمالي زبطرة وبينهما مرحلة كبيرة .

وللطية أيضا قنى تدخل البلد وتجري في دوره وسككه .

١٢ - سيواس :

وهي بلدة كبيرة مشهورة ، وبها قلعة صغيرة ، وهي ذات أعين ، والشجر بها قليل ، ونهرها الكبير يبعد عنها بمقدار فرسخ ، وهي في بسط من الارض ، المسافة بينها وبين قيسارية ستون ميلا ، تقع مدينة أرزن في شرقيها ، وسيواس شديدة البرد .

١٣- تَوَقَّات :

بلدة صغيرة في لحف الجبل ، تقع بين قونية وسيواس ، ذات قلعة حصينة وأبنية مكيّة ، بينها وبين سيواس يومان ، لها بساتين وأشجار وفواكه جيدة ، معتدلة في الحرارة والبرودة ، وهي شمالي سيواس .

١٤- أَرَزَنْ :

مدينة مشهورة قرب خلاط ، وهي آخر بلاد الروم من جهة الشرق ، وفي شرقيها وشماليها منبع الثرات .

١٥- القسطنطينية :

مدينة شهيرة جدا ، كانت عاصمة الامبراطورية البيزنطية الشرقية ، بناها قسطنطين سنة (٣٣٠م) ، وهي مسورة بسور حصين ، ارتفاعه مابين أربعة عشر قدما وعشرين قدما ، ومحيطها أكثر من اثني عشر ميلا .

١٦- مرج الأسقف :

موضع قريب من غرب بدنوس (البذندون) .

١٧- مَطْمُورَة :

بلد في ثغور الروم ، بناحية طرسوس .

١٨- ذُو القلاع :

كانت قلعة مشهورة ، واسمها عند الروم تفسيره : الحصن الذي مع الكواكب .

ويبدو أنها تطابق : ( سيدروبوليس Sideropolis ) في بلاد القباذق .

١٩- اللؤلؤة :

قلعة قرب طرسوس ، واسمها عند البيزنطيين : لولون ، ، سماها العرب لؤلؤة ، ليضغوا على اسمها معنى من المعاني .

٢٠- طئوانة :

بلد بشغور المصيصة ، اسمها القديم : تيانا .

٢١- الصمصاف :

كورة من كور المصيصة ، ويرد ذكرها أحيانا : مدينة الصمصاف أو حصن الصمصاف ، وهي قرب لؤلؤة على طريق القسطنطينية .

٢٢- حصن الصقالبة :

حصن يقع في جنوبي البزندون ، وسمى باسم الصقالبة الذين فروا من البيزنطيين وعكروا فيه . وكان مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية قد جعلهم في هذا الحصن لحراسة الدرب .

٢٣- مكنقونية :

بلد من بلاد الروم ، قريب من قونية ، تفسيره مقطع الرحي ، لأن من جبلها يقطع رحي تلك البلاد .

٢٤- أقسوس :

بلد بشغور طرسوس في بلاد الروم .

٢٥- أنطاكية :

مدينة مشهورة تعتبر قسبة العواصم من الشغور الشامية ، وهي من أعيان

البلاد وأمهاتها ، موصوفة بالنزاهة والحن وطيّب الهواء وعذوبة الماء وكثرة الفواكه وسعة الخير •

ولها سور فيه ثلاثمائة وستون برجاً من أبراج المراقبة ، وشكل البلد كمنصف دائرة ، قطرها يتصل بجبل ، والور يصعد مع الجبل الى قمته ، وفي رأس الجبل دار الور قلعة تين لبعدها من البلد صغيرة ، وللور المحيط بها دون الجبل خمسة أبواب •

وبين أنطاكية والبحر نحو فرسخين ، ولها مرسى في بليد يقال له : الوريدية ترسى فيه المراكب ، وترفع الأمتعة الى أنطاكية على الدواب •

٢٦ - أطرابزئدة = طرابزون :

مدينة من أعيان مدن الروم على ضفة القسطنطينية الشرقي ، وهو المعروف ببحر بنطس (البحر الأسود) • والى هذه المدينة منتهى جبل القبق ثم يقطع البحر ، وهي مشرفة على البحر وماؤه محيط بها كالخندق محصور حولها بأسرها ، وعليه قنطرة اذا دههم عدو قطعوها ، ولها اقليم واسع ، ومقابلها مدينة كراسنده على ساحل هذا البحر الغربي ، وولايتها كلها جبال وعرة ، وهي من أعمال القسطنطينية •

وهي أجل ميناء ، كانت تجلب اليها السلع من القسطنطينية وتحمل منها الى بلاد الاسلام • وكان التجار العرب وكلاؤهم ينقلون السلع منها عبر الجبال الى ملطية وغيرها من مدن الفرات الأعلى ، وأخص هذه السلع : ثياب الكتان اليوناني ، وثياب الصوف والديباج والأكسية الرومية ، وكلها كان يجلب بحراً من الخليج الى البفور •

## الجيال والأتهار

## ١ - الجبال :

بلاد الروم ، أو ما يطلق عليها الجغرافيون المحدثون اسم : آسيا الصغرى (تركيا الحديثة) ، عبارة عن شبه جزيرة عظيمة مكونة لهضبة تحدها الجبال ، وتنحدر على وجه العموم نحو البحر الأسود (٢) .

وتقطع هضبة آسيا الصغرى سلسلة بئتيك في الشمال وجيل طوروس في الجنوب (٣) .

وجبال بلاد الروم المهمة هي : طوروس ، وأتى طوروس ، وهما سلسلتان جبليتان كانتا الحدود بين بلاد المسلمين والروم في أيام بني أمية وبني العباس ، وكان يمين هذه الحدود ويحيطها خط طويل من القلاع تعرف بالثغور ، يمتد من ملطية على الثرات الاعلى الى طرسوس بالقرب من البحر الابيض المتوسط ، ومن أهم هذه الثغور : المصيصة ، وأذنة ، وطرسوس .

وجبل اللكام اسم أطلقه البلديون المسلمون على سلسلة جبال أتى طوروس (٤) ، وقالوا في وصفه : «الجبل المشرف على أنطاكية وبلاد ابن ليون والمصيصة وطرسوس» (٥) ، ثم يتد الى ملطية وسيباط وقاليقلا الى بحر الخزر ، فيسمى هناك جبل القبق (٦) ، وهذا يتصل بجبال القوقاز

(٢) الجغرافية العمومية - اسمدارد بالاشترار - القاهرة - ١٩١٩ - ص (١٨١) .

(٣) الجغرافية العمومية - (١٦٩) .

(٤) بلدان الخلافة الشرقية (١٦٢) .

(٥) معجم البلدان (٧ / ٢٢٧) .

(٦) معجم البلدان (٧ / ٢٢٠) .

المتدة شمالا وبجبال هندكوش التي تتصل بجبال هماليا (٧) .

ويقطع جبال طوروس دروب كثيرة ، تلك المسلمون اثنين منها بوجه خاص في غزواتهم السنوية لبلاد الروم .

الدرب الأول : درب الحدث ، وهو في الشمال الشرقي ، وكان من مرعش فشالا الى ( أبلستين Ablastin ) ، وقد عرفت هذه المدينة ب : (البتان) ، وهي : ( أبلثا البيزنطية Ablastho ) أي ( عربسوس اليونانية Arabissus ) ، وكان يحصى هذا الدرب حصن ( الحدث Adatha

والدرب الثاني : وكثيرا ما كان يسلك في الأزمنة القديمة ، وهو الدرب الضارب شمالا من طرسوس ، ومنه يأخذ الطريق العام الى القسطنطينية ، وكان هذا الطريق هو الذي يسلكه ساعة البريد وتمر منه القوافل والوفود ، كما أنه الطريق التي تتبعه موجات المحاربين من المسلمين والنصارى ، وكان هذا الدرب يعرف في قسمة الجنوبي بدرب الالامة . وقد وصفه ابن خردادبة في كتابه الممالك والممالك ، فقال : «من طرسوس الى العليق اثنا عشر ميلا ، ثم الى الرهوة - أي المكان المنخفض ولعلها : مبكرينة Mopsukrene القديمة - ثم الى الجوزات اثنا عشر ميلا ، ثم الى الجردقوب سبعة أميال ، ثم الى البذندون Podandos سبعة أميال ، ثم الى معكر الملك على حمة لؤلؤة - لولون Loulon - والصفصاف عشرة أميال - قرب فوستينوبوليس Fanstinopolis - وتصير الى معكر الملك وقد قطعت الدرب - النهاية الشمالية من الدرب الذي اخترق الجبل - وأصحرت . ومن معكر الملك الى وادي الطرفاء اثنا عشر ميلا ، ثم الى منى

(٧) الجغرافية العمومية (١٦٦) .

## اللواء الركن محمود شيت خطاب

عشرون ميلا ، ثم الى نور هرقله - وهرقله هي أراكيلة الحديثة وهركليّة  
Heraclia عند الروم - اثنا عشر ميلا ، ثم الى اللين ثمانية أميال ،  
ثم الى رأس الغابة خمسة عشر ميلا . ثم الى المسكنين ستة عشر ميلا ، ثم الى  
عين برغوث اثنا عشر ميلا ، ثم الى نهر الاحساء - أي النهر الذي تحت الأرض -  
ثمانية عشر ميلا ، ثم الى ربض قونية - ايكونيوم Iconium  
ثمانية عشر ميلا ، ثم الى العليين خمسة عشر ميلا ، ثم الى ابرومسانة عشرون  
ميلا ، ثم الى وادي الجوز اثنا عشر ميلا ، ثم الى عمورية - آموريون  
Amorion - اثنا عشر ميلا . وطريق آخر : «من العليين الى عمورية  
يبدأ من العليين الى قرى نصر الاقريطي خمسة عشر ميلا ، ثم الى رأس بحيرة  
الباسليون - بحيرة الاربعين شهيدا - عشرة أميال ، ثم الى السند عشرة أميال ،  
ثم الى حصن سنادة ثمانية عشر ميلا - وسنادة هي سنادس Synades  
ثم الى مغل خمسة وعشرون ميلا ، ثم الى غابة عمورية ثلاثون ميلا ، ثم الى  
قرى الحراب خمسة عشر ميلا ، ثم الى صاغرى - وهو Sangarius  
نهر عمورية ميلان ، ثم الى العليج اثنا عشر ميلا ، ثم الى فلامى الغابة خمسة  
عشر ميلا ، ثم الى حصن اليهود اثنا عشر ميلا ، ثم الى سندابرى - ستابريس  
Santabaris ثمانية عشر ميلا ، ثم الى مرج حمر الملك في درولية -  
دوريليوم Dorylaeum خمسة وثلاثون ميلا ، ثم الى حصن غروبلي  
Basilica of Anno Comnena خمسة عشر ميلا ، ثم الى كنائس الملك - وهي  
ثلاثة أميال ، ثم الى التلول خمسة وعشرون ميلا ، ثم الى الأكوار خمسة عشر  
ميلا ، ثم الى ملاجنة خمسة عشر ميلا - وملاجنة هي Malagina  
ثم الى اصطلب الملك خمسة أميال ، ثم الى حصن الغبراء - وهي كيبوتس  
Kibotos - ثلاثون ميلا ، ثم الى الخليج - وهو بوسفور

## بلاد الروم

القسطنطينية Bosphorus — أربعة وعشرون ميلا ، وثيقة بازاء النبراء  
( أي جنوب النبراء ) ( ٨ ) .

وهذا هو ما يطلق عليه الدرب ، واذا أطلق هذا اللفظ أريد به ما بين  
طرسوس وبلاد الروم لأنه مضيق كالدرب ، واياه عنى امرؤ القيس بقوله :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه  
وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

فقلت له لا تبك عينك انما  
نحاول ملكاً أو نسوت فتعذرا<sup>(٩)</sup>

ولجبال طورس وأتى طورس فروع يذكر قسماً منها البلدانيون  
المسلمون بأسماء مختلفة ، وهي عبارة عن فروع من طورس وأتى طورس .  
٢ — الأنهار :

أهم أنهار بلاد الروم نهران هما : سيحان وجيحان ، وقد أطلق المسلمون  
على نهر ( سارس Sarus ) اسم نهر سيحان ، وأطلقوا على نهر ( بيرامس )  
اسم نهر جيحان ، وكانا حداً مائياً بين بلاد المسلمين وبلاد الروم .

ومنابع هذين النهرين في المرتفعات شمال ارمينية الصغرى ، وكان نهر  
جيحان الذي كان يقارب نهر الفرات في الكبر ، وتسمية العامة : جهان ، يسير  
من الشمال الى الجنوب بين جبال في حدود الروم ، حتى يمر بالمصيصة من

( ٨ ) المسالك والممالك لابن خردادبة ( ١٠٠ و ١١٠ و ١١٢ ) وقد جاء في ( ١٠٢ ) —  
( ١٠٢ ) وصف طرق تختلف بعض الشيء عن هذا الطريق ، وانظر كتاب  
بلدان الخلافة الشرقية ( ١٦٦ — ١٦٧ ) .

( ٩ ) معجم البلدان ( ٤ / ٤٨ ) .

## اللواء الركن محمود شيت خطاب

شمالها ، وجريانه عندها من الشرق الى الغرب ، ويتجاوز المصيصة مغرباً ويصب بالقرب منها في بحر الروم (١٠) بمدينة تعرف بكثريا بأزاء المصيصة ، وعليه عند هذه المدينة قنطرة عجيبة رومية من حجارة قديمة عريضة ، فيدخل منها الى المصيصة وينفذ منها فيمتد أربعة أميال ، ثم يصب في بحر الروم (١١) .

أما نهر سيحان الذي يمر ببلاد الروم ، فيجري من الشمال الى الجنوب غربي مجرى جيحان ، وهو دون جيحان قدراً فهو أصغر منه ، ويمر على سور أذنة من شرقها ويتجاوز أذنة ، وهي دون مرحلة عن المصيصة ، ويلتقي مع جيحان تحت أذنة والمصيصة ، ويصيران نهراً واحداً ، ويصبان في بحر الروم (١٢) . ونهر سيحان هو الذي ذكره المتنبى في مدح سيف الدولة فقال :

أخو غزوات ما تغيب سيوفه رقابهم الا وسيحان جامد

يريد أنه لا يترك الغزو الا في شدة البرد اذا جمد سيحان (١٣)

ونهر حماة ، ويسمى نهر : الأرظ ، والنهر المقلوب لجريه من الجنوب الى الشمال ، ويسمى أيضاً : العاصي ، لأن غالب الأنهر تسقى الارض بغير دوايب ولا نواعير بل بأنفسها تسقى الارض ، ونهر حماة لا يسقى الا بنواعير تنزع منه الماء . وهو يجري بكليته من الجنوب الى الشمال ، وأوله نهر صغير من ضيعة قريبة من بعلبك تسمى : ( الراس ) في الشمال من بعلبك على نحو مرحلة عنها ، ويسير من الراس شمالاً حتى يصل الى مكان يقال له : ( قائم

- (١٠) تقويم البلدان (٥٠) .  
 (١١) معجم البلدان ( ٣ / ١٨٦ ) .  
 (١٢) تقويم البلدان (٥٠) .  
 (١٣) معجم البلدان ( ٥ / ١٩١ ) .

الهرمل ( بين جوسية <sup>(١٤)</sup> والراس ويسر بوادٍ هناك ، وينبع من هناك غالب النهر المذكور من موضع يقال له : ( منارة الراهب ) • ويسير شمالاً حتى يتجاوز جوسية ويصب في بحيرة : قدس <sup>(١٥)</sup> ، في غربي حمص ، ويخرج من البحيرة ويتجاوز حمص الى : الرستن <sup>(١٦)</sup> ، الى حماة ، ثم الى شيزر <sup>(١٧)</sup> ثم الى بحيرة : أفامية • ثم يخرج من بحيرة أفامية ويسر على : دركوش ، الى جسر الحديد ، وذلك جميعه في شرقي جبل اللكام •

فاذا وصل الى جسر الحديد ، ينقطع الجبل المذكور هناك ، ويستدير النهر المذكور ، ويرجع ويسير جنوباً ومغرباً ، ويسر على سور أنطاكية حتى يصب في بحر الروم عند السويدية <sup>(١٨)</sup> •

ويصب في نهر الأرنط المذكور عدة أنهر ، منها نهر منبعه من تحت أفامية ، يسير مغرباً الى بحيرة أفامية ، ويختلط بنهر حماة • ومنها نهر في شمالي أفامية على نحو ميلين ويعرف بالنهر الكبير ، يسير مدأ قريباً ويصب أيضاً في بحيرة أفامية ، ويخرجان منها مع نهر الأرنط • ومنها النهر الاسود ، يجرى من الشمال ، ويسر تحت دريساك <sup>(١٩)</sup> ، ونهر يغرا <sup>(٢٠)</sup> ، ومنبعه قريب يغرا ،

(١٤) جوسية : قرية من قرى حمص على ستة فراسخ منها من جهة دمشق  
انظر معجم البلدان ( ١٧١ / ٢ ) •

(١٥) قدس : بلد قرب حمص ، تضاف بحيرة قدس ، انظر التفاصيل في معجم  
البلدان ( ٢ / ٨٠ - ٨١ ) و ( ٧ / ٣٥ ) •

(١٦) الرستن : بليدة قديمة بين حمص وحماة ، انظر معجم البلدان ( ٤ / ٢٤٩ ) •

(١٧) شيزر : قلعة قرب المعرة ، انظر معجم البلدان ( ٥ / ٣٢٤ ) •

(١٨) السويدية : شمالي اللاذقية ، وهي ميناء أنطاكية ، انظر تقويم البلدان  
( ٢٩ ) •

(١٩) دريساك : بلدة من جند تنسرين ، ذات قلعة مرتفعة ، انظر تقويم البلدان  
( ٢٦٠ - ٢٦١ ) •

(٢٠) يغرا : قرية على نهر باسمها بالقرب من بحيرة أفامية ، انظر تقويم البلدان  
( ٤٢ ) •

## اللواء الركن محمود شيت خطاب

ويصب في النهر الاسود المذكور ، ويصبان في بحيرة أنطاكية ، أيضا . ونهر عفرين (٢١) ، يأتي من بلاد الروم ، ويسر الراوندان (٢٢) الى الجومة (٢٣) ، ويسر في الجومة ويتجاوزها الى العمق (٢٤) ، ويختلط بالنهر الاسود ، وتصير هذه الانهر الثلاثة ، أعني النهر الاسود ونهر يفرأ ونهر عفرين نهراً واحداً ، ويصب في بحيرة أنطاكية ، ويخرج منها ويصب في نهر عاصي حماة فوق أنطاكية بالغرب منها (٢٥) .

أما نهر أنقرة فيسقي مروجها وضياعها ، ويصب في بحر الروم ، وجريانه من الجنوب الى وسط الشمال (٢٦) .

أما نهر هرقله ، فينزل من جبال العلايا (٢٧) الى جهة سنوب (٢٨) ، وهرقله على شرقي هذا النهر قرب البحر (٢٩) .

واليردان نهر بشرطرسوس ، مجيئه من بلاد الروم ، ويصب في بحر الروم على ستة أميال من طرسوس : « ولا أعرف بالشام موضعاً أو نهراً يقال

- 
- (٢١) عفرين : اسم بلد على نهر باسمها ، انظر معجم البلدان ( ٦ / ١٨٩ ) ، ويبدو انها قريبة من قنسرين وحلب .
- (٢٢) الراوندان : قلعة حصينة وكورة طيبة معشبة مشجرة ، من نواحي حلب ، انظر معجم البلدان ( ٤ / ٢١٤ ) .
- (٢٣) الجومة : من نواحي حلب ، انظر معجم البلدان ( ٣ / ١٧٦ ) .
- (٢٤) العمق : كورة بنواحي حلب ، انظر معجم البلدان ( ٦ / ٢٢٤ ) .
- (٢٥) المعلومات الخاصة بنهر حماة من : تقويم البلدان ( ٤٩ - ٥٠ ) .
- (٢٦) تقويم البلدان ( ٥٠ - ٥١ ) .
- (٢٧) علايا : بلدة محدثة صغيرة في الجنوب من انطاليا على بحر الروم ، انظر تقويم البلدان ( ٢٨٠ - ٢٨١ ) .
- (٢٨) سنوب : بلدة بالقرب من القسطنطينية .
- (٢٩) تقويم البلدان ( ٥١ ) .

## بلاد الروم

له : البردان غيره » . والبردان أيضاً نهر يسقى بساتين مرعش وضياعها ، مخرجه من أصل جبل مرعش ، ويسمى هذا الجبل : الأقرع<sup>(٣٠)</sup> ، ويصب في بحر الروم ، وهو نهر كوردس القديم .

وعلى مرحلة طرسوس ، نهر كان يؤلف حداً مائياً في الازمنة الاولى ، وهو نهر (لموس Lamos ) ، ساه العرب نهر : اللامس ، وعليه يكون الفداء اذا فودي بين المسلمين والروم<sup>(٣١)</sup> .

ونهر الفرات الذي ينبع من شمالي مدينة أروان الروم وشرقيها ، وأروان في آخر حد بلاد الروم من جهة الشرق ، ثم يأخذ النهر الى قرب ملطية ، ثم يأخذ الى سيساط ، ثم يأخذ مشرقاً ويتجاوز قلعة الروم ، وهي حصن منيع على جنوبي الفرات وغربيها ، ويسر الفرات مع جانب الحصن من شماليه وشرقيه ، ثم يدخل الفرات بلاد الشام ، ومنه الى العراق<sup>(٣٢)</sup> ، وتمت ذكرنا الجزء الذي يسر ببلاد الروم فقط من هذا النهر .

أما نهر دجلة ، فينبع من جبال شهرزور فوق آمد على حدود ارمينية ، ويسر بجبال السلسلة ، ثم بمدينة آمد ومدينة ميافارقين في ديار بكر اقليم الجزيرة قبل أن يصل الى مدينة الموصل .

وقد ذكرنا الجزء الذي يسر ببلاد الروم والجزيرة فقط من هذا النهر ، لان هذا ما نحتاج اليه في هذا المكان<sup>(٣٣)</sup> .

وتكثر العيون في بلاد الروم ، لتساقط الثلوج شتاء ، وذوبانها في الربيع

(٣٠) معجم البلدان ( ٢ / ١١٥ ) .

(٣١) بلدان الخلافة الشرقية ( ١٦٥ ) .

(٣٢) انظر التفاصيل في : تقويم البلدان ( ٥١ - ٥٢ ) .

(٣٣) انظر التفاصيل في : تقويم البلدان ( ٥٢ - ٥٧ ) .

## اللواء الركن محمود شيت خطاب

والصيف ، فترقد العيون والانهار بهذه المياه •

وعلى كل حال ، فان المياه متوفرة في جميع اصقاع بلاد الروم •

## الموارد الاقتصادية

١ - مجمل الزراعة والصناعة :

بلاد الروم عموما غنية في انتاجها الزراعي ومواردها الطبيعية ، يروها بضعة أنهر كبيرة وصغيرة ، وعيون كثيرة جداً ، والامطار ومياه الثاوج •

وقد ذكر قسم من البلدانين المسلمين بعض ما يتيسر في تلك البلاد من موارد اقتصادية ينعم بها سكانها المحليون ، ويصدرون ما يفيض منهم على حاجاتهم المعيشية •

فالعلايا كثيرة المياه والباتين<sup>(٢٤)</sup> ، وأنطالية بداخل البلد وخارجه المياه جارية ، ولها باتين كثيرة من الحمضيات وأنواع الفواكه<sup>(٢٥)</sup> • وأنطاكية موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء وكثرة الفواكه وسعة الخير ، تزرع الحنطة والشعير تحت شجر الزيتون ، قراها متصلة ورياضها مزدهرة ومياها متنجرة<sup>(٢٦)</sup> • ومدينة آق شهر (أشار) من ائمه المدن ، وبها باتين كثيرة وفواكه مفضلة<sup>(٢٧)</sup> وأماسية لها باتين ونهر كبير ونواعير تسقى بها ، وهي مشهورة بالحسن وكثرة المياه والكروم والباتين<sup>(٢٨)</sup> • وأذنة في

(٢٤) تقويم البلدان ( ٢٨١ ) •

(٢٥) تقويم البلدان ( ٢٨١ ) •

(٢٦) معجم البلدان ( ١ / ٣٥٤ ) •

(٢٧) تقويم البلدان ( ٢٨٢ ) •

(٢٨) تقويم البلدان ( ٢٨٤ ) •

مرج وقرى متدانية جداً وعمارات كثيرة ، وهي على نهر سيحان<sup>(٣٩)</sup> . ومدينة توقات لها باتين وأشجار وفواكه جيدة<sup>(٤٠)</sup> . ومنطقة (سيواس Sebastia مشهورة بثياب الصوف التي تحصل منها ، وهي ذات هواء بارد يكثر فيها القطن والقمح<sup>(٤١)</sup> . وعمورية لها دخل وافر ، ولها رحي تزل مالا<sup>(٤٢)</sup> ، وبها باتين قليلة ، ولها أعين ونهر<sup>(٤٣)</sup> . أما قيسارية فبلدة كبيرة ، ذات أشجار وباتين وفواكه وعيون تدخل اليها<sup>(٤٤)</sup> . ومدينة قونية لها جبل في جنوبها ، ينزل منها نهر ويدخل الى المدينة من غربها ، ولها باتين من جهة الجبل ، ونهرها يسقى باتينها ثم تصير عنه بحيرة ومروج ، والفواكه بها كثيرة ، وهناك الشمس المعروف بقصر الدين<sup>(٤٥)</sup> الذي يصدر الى العراق والجزيرة وبلاد الشام ، وينمو في مزارعها التطن والقمح<sup>(٤٦)</sup> . ومدينة المصيصة على شاطئ نهر جيحان ، وبها باتين كثيرة يسقيها هذا النهر<sup>(٤٧)</sup> . ومدينة ملطية ذات أشجار وفواكه وأنهار ، ويحتف بها جبال كثيرة الجوز وسائر الثمار مباحة لا مالك بها ، ولها نهر صغير عليه باتين كثيرة<sup>(٤٨)</sup> . ومياه بلاد الروم كثيرة غزيرة<sup>(٤٩)</sup> ، والارض التي بين القسطنطينية وأنطاكية مأهولة مسكونة لاتنقطع

(٣٩) معجم البلدان ( ١ / ١٦٦ ) .

(٤٠) تقويم البلدان ( ٢٨٥ ) .

(٤١) بلدان الخلافة الشرقية ( ١٧٩ - ١٨٠ ) نقلا عن المستوفى .

(٤٢) معجم البلدان ( ٦ / ٢٢٧ ) .

(٤٣) تقويم البلدان ( ٢٨١ ) .

(٤٤) تقويم البلدان ( ٢٨٢ ) .

(٤٥) تقويم البلدان ( ٢٨٢ ) .

(٤٦) بلدان الخلافة الشرقية ( ١٨١ ) .

(٤٧) معجم البلدان ( ٨ / ٨٠ ) .

(٤٨) تقويم البلدان ( ٢٨٥ ) .

(٤٩) صورة الارض ( ١٨١ ) .

## اللواء الركن محمود شيت خطاب

سابقتها من نواحي أنطاكية ورستاقها ، وهو رستاق كثير الخير والمير الى خليج القسطنطينية <sup>(٥٠)</sup> ، وما يقال عن اقليم أنطاكية يقال عن سائر أقاليم بلاد الروم .

وما ذكر عن خيرات المدن ، يشمل أقاليم تلك المدن أيضاً وقراها ، فهذه البلاد زراعية بالدرجة الاولى ، وأرضها مزروعة أو مروج ومراعٍ للأغنام والماشية والأبقار والخيول والبنغال والحير .

وحاصلات البلاد الزراعية تتلخص في : القمح ، والشعير ، والعدس ، والحمص ، والباقلاء ، والبصل والثوم ، والقطن ، وأنواع الفواكه ، والحمضيات ، وأنواع المخضرات ، والزيتون ، والجوز ، واللوز ، والتسحق ، والبندق ، والبلوط ، والكروم .

ويصنع فيها النبيذ ، وتربى بها دودة القز <sup>(٥١)</sup> ، والاعناب ، والمواشي ، والأبقار ، وتصدر الى بلاد الشام والجزيرة والعراق المواشي والاعناب والأبقار والبنغال .

أما الصناعة في البلاد ، فموجزها هي : أن المصيفة كانت تعمل بها الفراء التي تحل الى الآفاق ، وربما بلغ ثمن القرو ثلاثين ديناراً <sup>(٥٢)</sup> ، وكانت سيواس مشهورة بثياب الصوف التي تحل منها <sup>(٥٣)</sup> ، وكانت تجلب السلع الى طرابزون من القسطنطينية ، وأخص هذه السلع : ثياب الكتان اليوناني ، وثياب الصوف والديجاج ، والأكسية الرومية ، وكلها يجلب من الخليج أي

(٥٠) صورة الارض (١٨٢) .

(٥١) الجغرافية العمومية (١٨١) .

(٥٢) معجم البلدان ( ٨٠ / ٨ ) .

(٥٣) بلدان الخلافة الشرقية (١٦٨) نقلا عن : صورة الارض لابن حوقل .

الصفور ، وكان في ملتقوية يقطع الرحي لتلك البلاد من جبل تلك المدينة (٥٤) .  
٢ - الزراعة :

كانت الارض أسلم أنواع الاستثمار المالي ، لأن الأرض شيء ثابت ، فوضع صاحب رأس المال ماله في الارض ، وكذلك فعلت الدولة ، لأن الارض كانت أرضن موارد دخلها ، وكان الكيان المالي تبعاً لذلك ، يستند في الدولة البيزطية على دعامة رئيسة هي ضريبة الارض التي كانت تجبى في كل مكان بشدة وقسوة وبدون لين أو رحمة .

وكانت ضريبة الارض تجمع على شكل جزء من محصول الارض ، لتموين الجيش والموظفين المدنيين ، وكان على الولايات أن تقدم من ضرائبها الجرايات التي لم يكن الامبراطور على استعداد لشراؤها ، فكان يصدر مرسوم يسمى : ( التفويض الالهي ) تقدر فيه نفقات الامبراطورية ، ومقدار ما ينبغي على الفرد دفعه في العام التالي .

وقد قسمت الارض الى درجات ، روعى في تقسيمها قدرة تربتها على على الانتاج : فهناك الصحراء التي لا يبلها القطر فتعجز عن الانبات ، وهناك الأرض التي يمكن استصلاحها ، وهناك أرض تغذيها الأنهر مباشرة أو بالنواتير ، وهناك أرض تغرسها المياه فيتعذر النمو على البذور . وتتوقف درجات الانتاج الزراعي على هذا التصنيف الواضح للارض ، وكانت الدولة تفرض حقوقها على المزارعين بعد أن تصنف وتسجل هذه الاختلافات في نوعية الارض ، وتضع خطأً بياناً يحده طاقة كل منهم . فمثلا كانت الوحدة المكونة من خمسة أفدنة من الكروم ، تساوي عشرين فدانا من الارض المحروثة ،

(٥٤) معجم البلدان ( ٨ / ١٥٢ ) .

## اللواء الركن محمود شيت خطاب

وتساوي خمسا وعشرين ومائتي شجرة من الزيتون اذا كانت الارض تلالا .  
 وكانت هناك ثلاثة أنواع من الارض المزروعة ، جعلت مساحة الواحدة منها  
 عشرين فدانا وأربعين فدانا وستين فدانا ، بالنسبة لانتاجها الزراعي كل سنة .  
 وهكذا قسمت الأرض المنتجة الى وحدات ضرائبية ، تقدر على الأغلب  
 بناء على شهادة أصحاب الأرض في مدد منظمة بين حين وآخر ، وكانت هذه  
 الضريبة تجبي على الأرض المفلوحة .

ومن الواضح أن نظاما كهذا النظام ، لم يكن ليستطاع تطبيقه بنجاح  
 الا اذا احتفظ بالتعادل بين وحدات الأرض ووحدات العمل التي كانت مرتبطة  
 بعضها ببعض ارتباطا وثيقا ، وكانت المحافظة على هذا التعادل مصدر قلق  
 للمالك والحاكم البيزنطي ، وكان من نتائج هذا القلق الدائم تصميم الحكومة  
 على ربط الفلاح الحر (معر الأرض Colonus ) بالأرض التي يحرقها .

وعلى ذلك ، حين يقرر (التخويض الالهي) حاجة الامبراطورية من المال  
 اللازم لادارتها في السنة المقبلة ، توزع هذه الكمية الضخمة من المال المطلوب  
 على ألوية الامبراطورية ، ويقوم حاكم اللواء بتقسيمها بين الولايات التي  
 ينقسم اليها لوائه ، ثم يعهد لحاكم الولاية بتوزيع هذا الحمل بين بلديات  
 الولاية ، ويعهد لأعضاء البلديات تقرير ماتدفعه كل من القرى الواقعة في نطاق  
 بلدهم ، وأخيرا يقوم موظفو القرية بتقدير المبلغ الذي يخص كل وحدة ضريبة  
 في نواحيهم .

وكان هناك ميل قوي خلال القرن الرابع لليلاد ، لاستبدال ما يعادل  
 الضريبة العينية من المال بالضريبة العينية ، وانهى الأمر بتعميم قبض الضريبة  
 مالا لاعينا ، وجعل ذلك اجباريا ، وأصبح (التخويض الالهي) يقرر الضريبة  
 المالية المعادلة لها في نفس الوقت .

وكان الحاكم المطلق يضع نصب عينيه دائما ان يهيء لرعاياه بأي ثمن ،  
الوسيلة لزراعة الأرض وتوفير الأيدي العاملة لها . ولهذا كان رجال الدولة  
البيزنطية ينظرون الى ما كان يعد اليه الفلاحون الأجرار من العمل عند غيرهم  
بالتعاقد مع من يعطيهم أكبر أجر مسكن ، على أنه خطر اقتصادي ، فربطوا  
الفلاح بالأرض التي يشتغل عليها . وهكذا أصبحت الطريقة التي يعمر بها  
الناس الأرض تقوم على أساس تشرعبي ، ذلك أن معمر الأرض كان شخصا  
متميزا عن العبد ، وكان يعتبر عاملا حراً له الحق في أن يحوز أرضاً وأن  
يملكها ، الا أنه أصبح مجبراً على القيام بواجبه في زراعة قطعة معينة ثابتة  
له من أرض الدولة ، أو الأرض الداخلة في حدود أرض يمتلكها مالك كبير .

ولم يقف الأمر عند اجبار الناس على الاستقرار في قطع معينة من الأرض  
والزامهم بزراعتها ، بل ألزمت الجماعة بعد ذلك بضمان هذا الالتزام ، وأصبح  
مفروضاً على هيئة كبراء كل بلد الذين كانوا يكونون مجلسها ، أن يلتزموا  
بسداد الضرائب المستحقة على البلد وما يحيط به من القرى في حالة ما اذا  
هرب أحد الملاك ولم يخلفه في القيام بالتزاماته أحد . وما دامت المدينة  
تتحمل هذه المسؤولية الاجتماعية ، فقد أصبح من الضروري أن يوضع ضمان  
لذلك لصالح الخزانة ، فكونت مجالس جديدة لتحمل هذا العبء . وترينا  
سجلات ذلك العصر ، كيف كان هذا الحمل ثقيلاً ، فبينما كان الفنى يستطيع  
أن يرشو ليحصل على الاعفاء ، كان الفقير لا يجد من يمينه حيثما وجه وجهه ،  
وليس أمامه الا القنوط والاستلام أو الهرب بجلده . واذا هجر أرضه ، فإن  
المال المقدر عليه ، يقع على كاهل الباقين في أرضهم . وهدد الخراب الطبقات  
المتوسطة ، وأخذ القروي والمزارع يبحث عن يحميه من مطالب الدولة ، وكان  
المالك الكبير على استعداد للقيام بحمايته ، فتمكن بذلك من أن يحقق غاية  
في نفسه ، اذ أصبح ولياً للقرية يدين له أهلها بالولاء ، وأخذت هذه العلاقة

بينهم وبينه أشكالاً عديدة كان أشيعها أن يتنازل المزارع لذلك المالك الكبير عن أرضه ، ويصبح مزارعاً عنده .

وقد تميز القرنان الخامس والسادس لليلاد ، بنمو قوة الملاك الكبار ، وأصبح تاريخ الامبراطورية من وجهة الزراعة نزاعاً بين الدولة وهؤلاء الملاك الكبار . وشهد القرن السادس الميلادي جماعات من المواطنين يكوون عصابات مسلحة ، وكانت هذه العصابات تهديداً مباشراً للأمن في الولايات ، وكانت خصومات النبلاء الكبار صوراً للرعب المقيم ، وكانوا بعصابتهم المنظمة يتحدون السلطات المدنية ، ولكن غزوات الصقالبة من الشمال ، وغزوات الفرس والعرب من الشرق والغرب ، استطاعت أن تكسر شوكتهم .

وحين انتب النظام ثانية في عهد بيت هرقل ، كانت هناك فرصة للمالك الصغير ، الا أن الملاك الكبار ، بذلوا محاولات لتمكين سلطانهم على المزارعين الصغار .

وبالامكان التأمل في حياة المزارع القروي البيزنطي ، ولكن علينا أن نميز قبل كل شيء بين القرية الحرة والقرية المملوكة لواحد من كبار الملاك . كان الفلاحون في كلتا القريتين مرتبطين بالأرض التي يزرعونها ، الا أن الأرض في القرية المملوكة للسيد ، يكون مالكيها هو المسؤول أمام الدولة عن جميع الضرائب بالنيابة عن عبيده ممن ليس لهم الحق في امتلاك الأرض ، فهي دائماً تحت تصرف سيدهم . أما الأرض في القرية الحرة التي يكتنها الممرورون ، فتخصص جماعة القرية أو المزارعين أنفسهم ، وكان هؤلاء أحراراً في امتلاك الأرض أو التصرف بها . وإذا دخلنا قرية حرة ، لرأينا أرضها تشتتل على الكروم والبساتين التي كانت تزرع فيها الخضر ، وكذلك الأرض المفلوحة والمراعي . وكانت الكروم والبساتين تحاط بخنادق وسياجات شائكة تشدها

الأوتاد ، وكانت الماشية تتعرض للاذى إذا اقتحمتها . أما الأرض غير المفلوحة فلم تكن مسورة ، وكانت على الاغلب ملكاً للأفراد يستطيع المزارع أن يتصرف بها كما يشاء في حدود ملكية جماعته . وكانت المراعي تكون الأرض غير الصالحة للزراعة ، كالأحراش التي لم تقطع أشجارها ، والأرض الوعرة ، وكانت هذه المراعي تقع في أطراف القرية بعيدة عن مركز الحياة فيها ، وكانت على الأغلب ملكاً للجماعة ، ثم يمتلكها المزارعون قطعة قطعة ، ثم تنظف وتعد للزراعة ، ثم تقسم على المزارعين ، وبهذا تدخل قطع جديدة في ملكية الأفراد . وقد تكون الأحراش ملكاً للأفراد ، فإذا أراد أحد المزارعين أن يزرع قطعة منها ، طلب الى صاحبها أن يأذن له بزراعتها ، ويستطيع بذلك أن يستثمرها ويحتفظ لنفسه بفلتها ثلاث سنين تعود بعدها الى صاحبها ، ولكنه إذا زرعها بدون إذن ، فقد الحق في المطالبة بحصولها .

وكان رعاة الماشية يسوقونها في الصباح الى هذه الأحراش العامة لترعى ، تصحبهم كلابهم القوية الشرهة ، حتى اذا اصطبح الأفق بحمرة الشفق عادوا بها الى حظائرهم . وكان كل خروف أو ثور يحمل جرساً حول عنقه لتلا يضل ، وإذا تجرأ لص وقطع الجرس وتسبب عن ذلك ضلال الحيوان وضياعه ، ألزم بدفع تعويض مقابل تلك الخسارة .

وكانت دعامة ثروة جماعة القرية هو ما تملك من قطعان الماشية بأنواعها ، وكان الراعي يأخذ أجره على عمله ، فيعهد اليه المالك الصغير بشوره الخاص وخروفه فيرعاهها مع القطيع : فإذا شرد حيوان وأحدث ضرراً للأرض المزروعة أو الكروم ، لم يضع على الراعي أجره ، ولكن ألزم بتعويض الخسارة . وكانت الحيوانات المفترسة تحوم حول القرية ، كالذئاب التي كانت تترصد الخراف والحير لتفترسها ، وإذا هاجمت هذه الوحوش القطيع ليلاً ، فالويل كل

## الواء الركن محمود شيت خطاب

الويل للص الذي يتضح أنه سرق كلب الحراسة ، اذ كان يلزم بدفع قيمة الخسارة ، فيدفع تعويضات عن القطيع كله والكلب . وكان يسمح للماشية بعد حصاد الأرض أن ترعى بقايا الزرع ، الا أنه لم يكن يسمح لرجل أن يطلق ماشيته في أرضه الا اذا فرغ كل جيرانه من حصادهم .

أما مكانة المزارع ، فقد يكون صاحب حصة من الأرض ، ويستطيع في هذه الحالة أن يتصرف بها تصرفاً مطلقاً في حدود دائرة جماعته . وقد يكون مستأجراً للأرض ، وهو في هذه الحالة أحد اثنين : اما مزارع لمزرعة في حالة جيدة ، أو مستأجر لأرض لم تكن تزرع على شرطة أن يمدها لصاحبها بعد أجل معين ، ففي الحالة الأولى يقوم المالك بتقديم المال الرئيس لاقامة ما يلزم من المنشآت في المزرعة ، ولا تؤجر المزرعة في هذه الحالة الا لمدة قصيرة قد تكون سنة ، فيدفع المزارع للسيد أجراً باهظاً يبلغ نصف المحصول السنوي، وهو ما يقابل في حابنا أكبر ايجار يمكن دفعه ، وعلى المؤجر في الحالة الثانية أن يقدم رأس المال ، أي أنه في واقع الأمر يقوم بإنشاء مزرعة جديدة ، ويكون استجاره للأرض على هذا اما للأبد أو لعدد كبير من السنين ، ويدفع عادة أجراً يساوي عشر المحصول . وربما كان يلزم بمقتضى شروط أخرى ، أن يؤدي لصاحب الأرض بعض الخدمات ، أو أن يؤدي اليه كميات من المحصول .

وكانت روابط القرابة في الجماعات القروية متينة جداً بطبيعتها ، واذا وجدنا فلاحين مشتركين في ملكية أرض ، فلا بد أن نجد أنهما متصاهران في نفس الوقت غالباً . فاذا أراد أحدهما أن يبيع نصيبه كله كان لقريبه حق الشفعة اذا دفع ثناً ماوياً لما يدفعه أي غريب عنهما ، وحتى اذا لم يكن المتجاورون أقرباء وكانوا شركاء ، تتعوا بحق مشابه .

لكن حق المزارع الحر في التصرف لم يكن يخلو من خطر ، فقد كان

المالك الكبير دائم السمي لتوسيع ملكه ، فكان من السهل عليه أن يضطر المالك الصغير الحر الى التخلي عن أرضه لجاره القوي . وحاول التشريع الاصلاحى فى القرن العاشر الميلادى أن يحرم على المالك الكبير حيازة أرض علاوة على أملاكه الأخرى فى حدود أرض القرية ، سواء كان ذلك عن طريق الهبة ، أم لاعتبار آخر مهم ، وسواء أكان ذلك المالك سيداً مدنياً أم هيئة كنية . ولكن هذا المنع لم يكن ليعيش طويلاً فى هيئته هذه ، ولهذا عدلت القوانين ، وأخذت بالقاعدة التى تقول بأن انتقال الملكية لا يصح الا بين ناس من نفس الطبقة الاجتماعية ، الفقير ينتقل للفقير ، والغنى للغنى ، أى كل لمن هو من طبقتة فى كل حالة . وتداعت القاعدة القانونية لنقل الملكية نقلاً مطلقاً من كل قيد أمام ما كانت السياسة تفرضه على رجال الدولة من حماية الضعيف ، وظل مركز المالك الكبير القوي بالنسبة للمزارع الصغير الضعيف ، فى الامبراطورية البيزنطية الشرقية وسلامته يعتبران القاعدة التى يجب أن تخنى أمامها سائر النظريات القانونية ، وبقي المجتمع مقسماً الى طبقات بعضها فوق بعض ، وكان ذلك دعامة بناء المجتمع فى القرن الرابع الميلادى ، كما كان دعامة فى القرن العاشر الميلادى أيضاً (٥٥) .

### ٣ - التجارة والصناعة :

كانت التجارة مع الشرق تحتل المكان الأول من الأهمية بالنسبة لاطاليا فى عصور الامبراطورية الاولى ، فقد كانت تتورد من الشرق أسباب الترف التى كانت قد أصبحت من ضروريات الغرب . وكانت التجارة مع الشرق

(٥٥) مقتبس من الفصل السادس ، بعنوان : ملكية الأرض والضرائب ، كتاب : الامبراطورية البيزنطية - نورمان بيتز - تعريف الدكتور حين مؤسس ومحمود يوسف زائد - ط ٢ - القاهرة - ١٩٥٧ . ص ( ١٢٩ - ١٤٦ ) .

## اللواء الركن محمود شيت خطاب

لاتزال تستنزف معظم نشاط تجار الروم ، بعد أن نقلت العاصمة من رومة الى القسطنطينية . وكانت الدولة بدورها تبدي اهتماما بالتجارة ، إذ أن كنوز الهند والصين التي كانت الدولة تغدقها على أمراء القبائل المتبريرة في الغرب ، كانت كافية للإبقاء على سيادتها الامبراطورية حتى في النواحي التي لم تكن جيوشها قادرة على السيطرة عليها .

وكانت هناك ثلاثة طرق يمكن للنتجات الشرقية أن تصل عن سبيلها من الشرق الأقصى الى التاجر الرومي : كان أقصرها يعبر واحات بلاد الصغد (سمرقند وبخارى) مخترقا فارس ، ومن ثم الى حدود الامبراطورية البيزنطية . والثاني يخترق المحيط الهندي الى البحر الأحمر ، والثالث وهو طريق أكثر صعوبة ، يستد من وسط آسيا الى بحر الخزر ، ومن ثم الى البحر الأسود بعيداً عن دولة فارس . وقد ازداد الاقبال على الحرير بصورة مضطردة مع زيادة أسباب الترف ، وأصبح ارتداء الثياب الحريرية المصنوعة من الحرير الخالص في هذا العصر مألوفاً في الحياة البيئية ، وأخذت الكنيسة أيضاً ترحب بهدايا من هذه المادة الثمينة للالبة الكهنوتية والستر والأغلبية ، ولتزيين المذابح — بعد أن كانت أول الأمر ترفض استخدام الحرير للأغراض الدينية ، بينما احتكرت الدولة صنع أشكال معينة من ثياب الحرير كانت تلبس في مراسم البلاط . وكانت الدولة على كل حال تعتمد على القوافل التي تقطع فارس في امدادها بهذه المادة الجديدة . وقد لحق بتجارة الروم ضرر كبير من جراء عرقلة المواصلات ورفع ثمن المادة الحريرية الخام ، وكنتيجة لتحصيل البضائع المستوردة ضرائب كمركية باهظة قبل أن تجتاز الحدود الى بلاد الروم ، وبسبب الحروب البيزنطية الفارسية .

ومنذ القرن الخامس الميلادي ، أخذت الدولة تتدخل في التجارة ،

## بلاد الروم

فقصرت السماح بشراء الحرير على وكلاء الدولة في الحدود ، لكي لا يكون لها منافس ، ومن ثم يباع الى الأفراد بالسعر الجاري بعدئذ .

وجلبت شرايق دود القز الى بلاد الروم في أواسط القرن السادس الميلادي ، وبدأت أشجار التوت تزرع ، وأخذت الامبراطورية البيزنطية تنتج ما يلزمها من الحرير ، وظلت الدولة تحافظ على احتكارها لصناعة الحرير باهتمام ، وتستخدم ألوف العمال في ذلك .

وفي خلال النصف الأخير من القرن السادس الميلادي فتح طريق التجارة الشمالي بعد انقطاعه ، وكانت موانئ القرم تاجر مع الهون وجنوب روسيا ، فتجلب الجواهر وتحف الصناعة الرومية الفاخرة وتستبدل بها الجلود والعييد من الشمال ، بينما كان أهل قبائل القوقاز يبعون الجلد والفرو للحصول على القمح والملح والخمر .

وكان طريق التجارة الجنوبي أهم من ذلك بكثير ، حيث تمر التجارة الهندية والصينية والحشية بالبحر الأحمر ، وكانت سيلان أهم مركز تجاري في حينه ، يلتقي على أرضها تجار الشرقين الأقصى والأدنى وتجار الهند والحشة والصين . كما كان للروم تجارة مع الروس ، واستطاع الروس دخول القسطنطينية على شرط أن يكون دخولهم من بوابة واحدة غير مسلحين ، وألا يدخل أكثر من خمسين منهم في المرة الواحدة ، وهناك كانوا يستطيعون قضاء الصيف على ألا يطول مكثهم عن ذلك . وكانت الحكومة البيزنطية تهيب المسكن والطعام والحمامات للتجار الروس طول مدة زيارتهم دون مقابل ، وكانت تختص رسل أمير (كييف) الروسية للتجارين بمنح خاصة ، فلم تكن تحصل من التجار الروس على ضرائب كمركية . وكانت التجارة جميعها تقريباً تجري على أساس المقايضة ، فكان الفراء الروسي والشمع والعييد تقايض

## الوَاء الركن محمود شيت خطاب

بالخور اليونانية والفواكه والأقمشة الحريرية . وكانت الدولة البيزنطية تجهز التجار عند رجوعهم بالمؤن اللازمة لهم أثناء رحلتهم ، كما كانت تمنحهم أدوات لسفنهم كالمراسي والحوال الضخمة والصغيرة والأشرعة ، مما كانوا بحاجة إليها لاصلاح سفنهم وادامتها .

وفي القرن العاشر الميلادي ، أصدرت الدولة البيزنطية مجموعة القوانين لنقابات القسطنطينية التجارية . وأبرز مواد تلك القوانين ، تلك التي تنص على منح الحماية للمستهلك والمنتج على السواء ، فكانت الدولة تحرم على التجار جمع البضائع من السوق بقصد رفع الثمن والانتفاع من ذلك ، وكذلك كان من المحرم شراء البضائع جيلة والكسب من وراء بيعها تفاريق ، فكان يجب - في حدود الامكان - أن يشرى كل شيء ويبيع دون تدخل الوسطاء . ووضعت مادة تحفظ للعامل أجره الذي يستحقه ، وتكبح جشع الرأسمالين ، وتمنع احتكار أقلية غنية لصناعة ما . وكان المشتغلون بكل حرفة من الحرف يجتمعون في نقابة خاصة بهم ، وكان الجمع بين عضوية نقابتين في وقت واحد محرماً . وفي الحالات التي تمس مصلحة الدولة ، كحالة التعمير مثلاً ، نجد أن القواعد التي كان أعضاء النقابة الخاصة بذلك الموضوع خاضعين لها ، مفصلة تفصيلاً خاصاً ، فكانت الحكومة تقرر الثمن التي تشتري به المواد الخام وسعر بيع الماكولات ، ويظهر أنه كان في استطاعة الدولة أن تطلب بعض الخدمات من النقابات دون مقابل ، وربما كان هذا لتقليد يوناني قديم ، كانت الدولة تفرض بموجبه على مواطنيها الأغنياء أن يتطوعوا للقيام بخدمات لها . وربما كان تعيين رؤساء النقابات يتوقف في كل حالة على موافقة محافظ المدينة ، بينما كانت الدولة تشترط لكي تسهل عليها مراقبة كل المبيعات أن تكون العمليات علنية ، وكان من المحتم أن تتم هذه العمليات في أماكن معينة محددة لكل حرفة . وكان للنقابة وحدها أن تشتري المواد ثم توزعها على

أعضائها ، وكانت تلك الصفقات التي يقوم بها موظفو النقابات لاتتم الا في مواضع معينة . وكان انتهاك حرمة هذه النظم يعرض مرتكبها للعقاب بالفصل من النقابة ومصادرة املاكه ، أو بتفريسه مالا ، أو بجلده وقص شعر رأسه ولحيته ، واذا كانت الحالة اكثر خطورة ينفى أو تقطع يده . وكان على التجار الأجانب حال وصولهم العاصمة ، أن يخطروا السلطات الحكومية ، ولم يكن باستطاعتهم أن يكتثوا في العاصمة أكثر من ثلاثة أشهر الا بموجب اتفاق خاص . واذا انتهت هذه المدة دون أن يبيعوا بضائعهم ، قامت الدولة بوضع الترتيبات لبيعها . وكان كل ما يشترونه من البلدة تسفها خاضعاً لرقابة دقيقة، ولم يكن يسح لهم أن يحملوا معهم شيئاً من الأمتعة التي كان تصديرها محرماً كالمواد الحربية المتميزة . وكانت الحكومة تكشف عن كل البضائع كشفاً دقيقاً ، فاذا أبيع بعدئذ تصدير بضاعة ما ، طبعت بخاتم الدولة .

غير أن التجارة البيزنطية اضمحلت في القرنين العادي عشر والثاني عشر للميلاد ، لأن الدولة اضطرت الى أن تمنح مدينة البندقية امتيازات شديدة الخطر ، في مقابل الحصول على معاوتتها ، وذلك بعد أن أخفقت في الاحتفاظ بأسطولها . ولاشك في أن هناك أسباباً عدة لاضمحلال التجارة البيزنطية ، وحبينا أن نذكر سبباً يظهر أنه قد لعب دوراً مهماً ، وهو : لم يكن أغنياء الروم على استعداد لأن يجازفوا برؤوس أموالهم في تجارة تذهب الى ما وراء البحار ، بل كانوا يفضلون استثمار أموالهم في الأرض ، لأن الاخطار البحرية كانت في الواقع عظيمة : أخطار شبوب النار في السفن ، كما كان هناك ناس كثيرون يتربصون بالسفن على الشواطئ لأغراقها ، وكانت هناك أخطار لصوص البر وقرصان البحر . وكانت السفن تتعرض لما يسمى بالتقصاص ، وذلك أن دولة من الدول تمنح لرعاياها ، الذين أنزل بهم حيف من دولة أخرى ، الحق في أن ينتقموا لأنفسهم بمهاجمة كل سفينة تابعة للدولة التي اعتدى

## اللواء الركن محمود شيت خطاب

أهلها على رعاياها . وهناك خطر الوقوع في يد القرصان المسيحين المتدينين ، الذين يكسبون عن هذا الطريق المال الذي يعينهم على الخروج للحج الى بيت المقدس .

ومن هنا ، كانت السفن تسير جماعات في قوافل لتبادل المساعدة ، وكانت تحمل رجالاً مسلحين للدفاع عنها .

لهذا لم يكن أغنياء الروم متعددين للمجازفة بأموالهم في مخاطر التجارة البحرية ، فكانوا يستغلون أموالهم في شراء الأرض وتشييرها ، فاضمحلت تجارة الروم ، وتفوقت عليها تجارة البندقية فواقاً بعيداً (٥٦) .

أما خلال القرنين التاسع والعاشر للميلاد ، فكان الصانع منهمكاً في أشغاله ميورا ، فدولة الروم لم تعرف عهداً في تاريخها زهت فيه الصناعة والتجارة زهوها في هذين القرنين . ولم تكن القسطنطينية في أي وقت من أوقاتها أكثر تاجاً وأوفر ربحاً ، وأصبحت بوفرة مالها وحذق صناعها أم المال والذهب والفن والمعائب للعالم أجمع ، وقصدها أمير الصناع وأطبع التجار من سواحل البلطيق حتى الأسود والأدرياتيكي ، ومن ارمينية والقوقاز حتى اسبانيا والبرتغال ، وتمنى بذخها وثروتها أمراء الاقطاع شرقاً وغرباً .

فعلوة على البقالين واللحامين والخبازين والبائنين والنحاتين والرخامين والنجارين والحدادين والخياطين والرسامين ، كان هناك طبقة من التجار والصناع يعنون بنسج الحرير وصبغه وتزيينه بالرسوم وبالفضة والذهب ، وهؤلاء أدهسوا العالم بدقة صنعمهم ومهارتهم ، فجمعوا أموالاً طائلة ، وجعلوا من القسطنطينية قبلة أقطار أهل البذخ والترف في الشرق والغرب معاً . كما

(٥٦) مقتبس من الفصل الثالث عشر : التجارة من كتاب الامبراطورية البيزنطية .

أن صناعة الروائح العطرية لم تقل شأنًا عن صناعة الحرير .  
 وشجعت الحكومة هذه الصناعات وأخذت أسرارها ، وظلمت أمورها ،  
 ثم حست هذه الصناعات من مزاحمة الاجانب، فحددت الاستيراد أو منعتة (٥٧) .  
 لقد كانت تجارة الروم وصناعتهم في تقدم تدريجي حتى نهاية القرن  
 العاشر الميلادي ، حيث بلغت أوج تقدمها ، ثم اضمحلت بعد ذلك خلال  
 القرنين الحادي عشر والثاني عشر للميلادي ، فتأخرت وتقدم عليها غيرها من  
 الأمم ، كما ذكرنا ذلك .

### تاريخ بلاد الروم قبل الفتح الاسلامي

#### وفي أيامه الاولى

#### ١ - مولد الامبراطورية البيزنطية :

الروم عند العرب قبل الاسلام وبعده هم الرومان وخلفاؤهم البيزنطيون،  
 والبيزنطيون عند أنفسهم روم ، أي رومان . وعاصمتهم : ( رومة الجديدة )  
 أي القسطنطينية ، ولا يزال الروم الأرثوذكس يدعون القسطنطينية مركز  
 البطريرك المسكوني حتى يومنا هذا : ( رومة الجديدة ) .

واللفظ : روم في نقوش الصفا اسم بلاد واسم شعب ، وورد اسم الروم  
 في القرآن الكريم في : ( الم . غَابَتِ الرُّومُ . في أدنى الأرضِ وهمُ  
 من بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيْفًا بُونَ ) (٥٨) . في آية واحدة ، مرة واحدة فقط ،

(٥٧) الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب -

الدكتور أسد رستم - ص ( ٢ / ٩٦ - ٩٧ ) - بيروت - ١٩٥٦ .

(٥٨) الآيات الكريمة من سورة الروم ( ٣٠ : ١ - ٢ ) .

## الواء الركن محمود شيت خطاب

وحصلت السورة التي جاءت فيها تلك الآية الكريمة اسم : سورة الروم ، وهي من السور المكية (٥٩) .

وكانت رومة ، عاصمة الروم الاولى ، ولكنها تدهورت لأسباب كثيرة نذكر أهمها بإيجاز شديد .

فقد كان من جراء التوسع العيكري الروماني ، أن تعاضم كعب قادة الجيش وضباطه وحكام الولايات وكبار الموظفين ، فعادوا الى أوطانهم متمتعين بجميع ضروب الترف ، مشبعين بنظرة من ذاق لذة السلطة المطلقة ، بعيداً عن وازع الشريعة الرومانية وقيود النظم الجمهورية .

وتهاقت الأغنياء والكبراء على اقتناء المزارع الواسعة المترامية الأطراف ، وحشروا فيها ما ملكوا من أرقاء . ولم يقو المزارع الصغير على مزاحمة جاره المزارع الكبير ، فضم أرضه الصغيرة الى أرض جاره الكبيرة ، وربط نفسه بتلك الارض الى الأبد . ومع أن هذا النظام الاقطاعي لم يجعل من المزارع الصغير الذي لا أرض له رقيقاً لسيده ، فانه فقد حريته في أن يذهب حيث يشاء . وكانت حياة الرقيق في هذه المزارع الكبيرة شاقة تعبة ، وكان يكوى بياضه ليبقى الوسم علامة يعرف بها عند الفرار ، فنفر الرقيق من صحبة سيده ، واتقبضت نفسه عن العمل له باخلاص وأمانة . وتضاءلت على الأيام حقوق القمح وبساتين الزيتون وكروم العنب ، وبار قسم من المزارع وترك لينبت فيه العشب والدغل . واعتمدت رومة على قمح مصر وجوبها لتغذية أبنائها وأبناء المدن الايطالية الاخرى ، وقلت الأيدي العاملة لهجرة الفلاحين الى المدن ، فبارت الارض لهذا السبب أيضا ، وضعف الانتاج الزراعي .

(٥٩) المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم (٢٢٩) - محمد نؤاد عبدالباقي - القاهرة - ١٣٧٨ هـ .

وكان هناك عداً مزمن بين الفقراء والأغنياء . فثار الأرقاء أكثر من مرة على سادتهم ، وشر المزارعون الصغار في ايطاليا وغيرها وأحرقوا المزارع الكبيرة التي أنشأها كبار الملاكين . بيد أن الأرقاء لم ينظفوا صفوفهم . ولم يكن لديهم في وقت من الأوقات برنامج سياسي معين يسمون لتحقيقه ، وجل ما بلغوا إليه أنهم كرهوا أسيادهم وثاروا في وجوههم وتمنوا زوال نعمتهم ، وذلك بعمليات متفرقة في غالب الأحيان .

وأدى توسع رومة في الشمال والجنوب والشرق والغرب ، الى توسع مسائل في أفق أبنائها العاملين في حقل الصناعة والتجارة ، فخرجوا من ايطاليا الى الولايات الجديدة يوظفون أموالهم فيها ، وقام من أبناء هذه الولايات نفسها ، ولاسيما الشرقية منها ، من شاطر هؤلاء عليهم واتاجهم ، فنشطت الزراعة والصناعة والتجارة في الولايات . ومع الزمن ، فقدت ايطاليا سيطرتها الاقتصادية التي كسبتها في حروب التوسع المتتالية ، وقل إنتاجها الصناعي وتدنى ، فأصبح في مستهل القرن الثالث الميلادي قليلاً ، فقل الدخل عموماً وقل دخل الدولة ، لتأخر الصناعة والتجارة وانحسار دخلها ومواردها ووارداتها .

وكانت الخدمة العسكرية في أوائل عهد رومة محصورة في المواطنين الرومانيين ، ولما جاء يوليوس قيصر منح حقوق المواطن الروماني لبعض وجوه الولايات وأعيانها . وقضت ظروف الحرب والاستيلاء والتوسع بتكبير الجيش ، فوجدت رومة أبناء الولايات في وحدات مساعدة ، ثم تاهلت رومة مع كل من لمست فيه استعداداً لتضمها والامتزاج بأبنائها ومنحته هذا الحق الكبير . وفي سنة ( ٢١٢م ) أبيع هذا الحق لجميع سكان الامبراطورية ، فأصبح الجيش مؤلفاً من جميع عناصر حوض البحر الأبيض المتوسط ، مما أدى الى انحطاط الجيش الذي أصبح ضخماً في كميته هزلاً في كميته .

## الواء الركن محمود شيت خطاب

كما أن التوسع العسكري الكبير ، أدى الى تغير آخر في الجيش ، فالحدود الشاسعة الطويلة ، والاعمال الحربية المتابعة ، قضت بتطويل مدة الخدمة العسكرية . والانحطاط الاقتصادي اضطر الحكومة الرومانية الى أن تقطع جنود الحدود أرضاً يحرقونها ، وأن تجيز لهم أن يتأهلوا وقيموا في أكواخهم قرب الحدود ، ففضى الجنود حياتهم بأكملها في خدمة الجيش ، وأصبحوا طائفة عسكرية تعيش لنفسها لا جيشاً من الشعب يقوم بخدمة الدولة .

كما عجل كثيراً في انحطاط الجيش ، أن الجند أصبحوا يختارون من يرضون عنه ليصبح امبراطوراً ، ويمزلون من لا يرضون عنه ويعينوا مكانه غيره ، كما أمسى الامبراطور نفسه قليل المهابة والاحترام ، وهذا أدى الى انهيار الضبط والربط في الجيش ، ولا قيمة لجيش لا يتحلّى بالضبط العالي والربط المتين .

وكان الامبراطور في بدء الامر وجيهاً رومانياً كبيراً خول سلطة عسكرية واسعة في ظروف حرية قاهرة ، وكانت هذه السلطة أو القيادة تنتهي باتهاء الحرب . ثم جاء الامبراطورية بطولها وعرضها وتعددت مشاكلها ، فوكلت رومة القيادة الى رجل واحد طوال عمره . وبقيت سيادة الدولة الرومانية تظل هذا الامبراطور الفرد ومنها يتمد سلطته ، وبقي هو ممثل الجمهورية الاوحد ، واستحق لقب : ( أوغسطس ) أي قديس لأنه كان في نظر الرومان رمز آلهة رومة الحي . وانحصرت السلطة التشريعية بيد مجلس الشيوخ ، وكذلك ادارة الدولة وفرض الضرائب وجبايتها ، ولما كانت القوة العسكرية بيد الامبراطور ، كان من الطبيعي جداً أن يتناول على حقوق مجلس الشيوخ في نطق سلطته ، وأن تتدرج الدولة الرومانية الجمهورية في سلم الملكية .

وتبين أن الجيش بعد أن انفصل عن الشعب الروماني وأصبح خليطاً من كل من هب ودب ، بقي يمارس سلطة هائلة في اتقاء الامبراطور بالمشاركة مع مجلس الشيوخ ، ولكن هذه السلطة أصبحت غاشمة بعد انحطاط الجيش .

وتساقطت الاباطرة واحداً بعد آخر قتلاً بأيدي جنودهم أو بأيدي جنود أعدائهم ، وتكاثرت الحروب على الروم ، وتصاعدت الافكار الفلسفية التي فرقت الشعب دون جدوى .

وظهرت المسيحية ، فعانت ما عانت من اضطهاد الروم ، ويشير المؤرخون عادة الى عشرة اضطهادات بين سنة أربع وستين لليلاد الى سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة الميلادية (٦٠) ، حيث كانت سنة البراءة التي تنفس فيها المسيحيون الصعداء .

فقد تنصر قسطنطين الكبير ( ٢٨٠ - ٣٣٧ م ) سنة (٣١٢م) ، فظهرت رسوم مسيحية على مكوكاته ، وجعل شارة الصليب على رايته ، واهتم بالنصارى واعتنى بهم ، وحرّم التبشير باليهودية والدعاية لها سنة (٣١٥م) ، وأصبح حبر الأمة الأعظم يرعى جميع الاديان وبخاصة المسيحية ، ولكنه لا يكره أحداً على أن يذهب مذهبه ، ولكل من رعاياه أن يتبع الرأي الذي يراه .

وقضت ظروف قسطنطين السياسية والعسكرية ببقائه في الشرق أكثر من الغرب ، فعزم على انشاء عاصمة في الشرق تسهل الدفاع عن الولايات الغربية والشرقية ، ووقع اختياره على بيزنطة ، ولا نعلم بالضبط متى خطط قسطنطين عاصمته الجديدة ، ولكننا نعلم أن تدشينها جرى في الحادي عشر من أيار سنة (٣٣٠م) ، وسماها : رومة الجديدة ، ولكن الشعب أطلق عليها

(٦٠) الروم (٦ - ٢٢) ، حول التفاصيل .

اسم : القسطنطينية (٦١) •

٢ - الحياة الاجتماعية :

كانت الهويات والنزعات في الامبراطورية البيزنطية الشرقية دينية ، وكانت الامور من سياسية واجتماعية تلبس ثوباً دينياً •

لقد كان البيزنطي يعيش في عالم تملأه وتسيطر عليه القوى الخفية ، فكانت عطلاته أعياداً دينية ، وألعابه في الملعب تتهل بالتراتيل الدينية ، وعقوده التجارية توسم عليها علامة الصليب أو تحتوي على ابتهال للثالوث المقدس • وإذا أراد أن يستخير الله لم يفعل ذلك الا عن طريق النساك أو عن طريق الرؤى الذي يتمثل فيها القديسون الأموات • وكان يتخذ من التائم المقدسة تماويذ له ، ويرى في الفبار المحتوي على قطرة عرق انحدرت من جسم قديس من الذين ماتوا على الأعمدة أنجح دواء عنده • وكانت حروب صليبية مقدسة وامبراطوره خليفة لله في أرضه ، وكل حادثة مروعة في الطبيعة فهي اما نذير أو بشير ليثنيه أو يحفره •

وكانت النتيجة لهذه النظرة أن أصبح العلم متهاً ، فقد وجد أحد أطباء العاصمة أن نسبة الوفيات عالية في الطبقة العاملة الذين يعيشون في مساكن تحت الارض ، وكان ذلك في طاعون القرن الرابع الميلادي ، فأعلن للسلا أن ذلك سببه قلة الهواء النقي ، فاتهم الطبيب بالكفر ولما أصيب الطبيب بالمرض وقضى نحبه ، انتصر رجال الدين المسيحي ، واعتقد الناس أن موته كان عقاباً له على زندقته •

والحق أن البيزنطي تحول بالسليقة الى القديس بعد أن عاين عجز

(٦١) الروم ( ٥١ - ٦٤ ) ، حول التفاصيل •

الطبيب ، وبعد أن كان الناس ينامون في الهياكل الوثنية ليرأوا من أسقامهم، أخذ المسيحي حينئذٍ يتردد الى الكنيسة أو الى مقام أحد الشهداء ، وتولى الملاك ميكائيل مهمة شفاء الناس التي كان يتولاها الاله القديم في المعبد ، وأخذ القديس المسيحي يحل محل الاله الوثني الذي كان يدرأ الأذى عن المدينة .

وهذا الشعور المستمر بوجود القوى الخفية ، هو الاطار الذي كان يعيش فيه الانسان البيزنطي ، ذلك أن ميله الى اللاهوت كان يظهر في كبار الأمور وصفارها ، وكان العالم المحجوب عن الأبصار يدور معه في الآجة والعاجلة .

ولم يكن ساكن العاصمة يعيش في جو ديني حجب ، ولكنه كان يعيش في جو خطر ، ولاشك في أن أعصابه كانت في بعض القرون تحيا في توتر مستمر ، لأن مدينته كانت تقاسي حصاراً بعد حصار . ومبا لاجتال فيه أن الامبراطورية الرومانية في الغرب سقطت لأن أعداءها فاقوا جيوشها عدداً ، ولو تيسر للمدافعين يومئذ البارود والمدفع لباءت هجمات أعدائهم بالاختناق ، لأن ذلك السلاح كان يكفي لیسد العجز العددي عند الرومان . وكانت أسوار القسطنطينية تمثل للشرق بمعنى من المعاني المدفع والبارود اللذين حرمتها الامبراطورية الغربية ، فأل أمرها الى الزوال . ولكن لا بد للأسوار من رجال، وإذا كان المدافعون عنها فئة قليلة ، فلا بد من أن تلعب الخدعة والحثكة والخيانة الصراع — اذا دعت الحاجة اليها — دورها بالنيابة عنهم . وهكذا مال الخلق البيزنطي الى ألوان من الدهاء لا تعرف المبادئ ولا حدود الأخلاق ، تلك الخصال التي نستطيع أن نلمسها حتى في الشخصيات والناس عامة . ونستطيع أن نقرر من غير حرج ، أن النعفة الذاتية التي انفرست في النفوس دون شك ، كانت شائعة في الروم الشرقيين رقيمهم ووضيعهم .

ذلك أن التوتر الدائم له رد فعل ، هو الافراط في التراخي •

ومن البث أن تنكر ، أن العنف والوحشية والجور ، وهي خصال كانت متأصلة في نفوس البيزنطيين ، كانت تلعب دوراً كبيراً ، فقد كان جمهور العاصمة ينظر باستخفاف الى قيم الحياة البشرية نتيجة لسخطه على الساسة الذين أبغضهم بغضاً مريراً ، ونتيجة للسهولة التي كان التحريق والقتل يقترفان بها أمام أعينهم كلما وقع شغب وهياج • وزادت الحكومة سوءاً ، فضربت للناس أسوأ المثل في هذه الناحية ، بما كانت تطبقه من معاقبة المجرمين بتوقيع عقوبات تقوم على قطع الجوارح ، كقطع الأيدي ، وجذع الأنوف ، وسل الأعين •

وعلى الرغم من الخطر المحدق بالعاصمة دوماً ، كان البيزنطي يتطلب لنفسه تلية ومرحاً ، وكانت مراكز الحياة الثلاثة في العاصمة هي : القصر ، وميدان السباق ، والكنيسة • فاذا أغلقت الحمامات وأقلت أبواب ميدان السباق ، فقدت الحياة عند البيزنطي بهجتها ، وأصبحت تافهة ضحلة لا غناء فيها •

وكان المتسابقون يعيشون في عالم تسوده الخرافات الوثنية ، حتى لقد كانوا يحاولون بالتعاون السحرية والتائم أن يقيدوا منافسيهم برقى حتى يفوزوا دونهم ، وكثيراً ما كان السائقون يفتشون قبل بدء السباق حتى لا تكون معهم الخرزة السحرية التي تكفل لهم الفوز دون استحقاق ، مع كثير من السموات الأخرى •

وكان ميدان السباق مكاناً تمرض فيه الانتصارات الامبراطورية ، حيث كان الإباطرة يضعون الحناء الأرجواني - رمز السيادة - على رؤوس المنافسين المتهورين أو الأعداء المغلوبين • كما كان أيضاً محكمة جنائيات ،

يتخذ فيها القضاة مجالسهم بانتظام . حتى ان الامبراطور اذا اقتنع بارتكاب أحد الحكام جريمة من الجرائم ، قضى على المجرم أن يحرق حياً على مرأى من الرعية . وكذلك كان الملعب مسرحاً لتلك المواقب التي اعتاد الناس أن يروا فيها رجلاً من رجال البلاط أو رجال الدين المغضوب عليهم ، يسار به بين صفوف الشعب الساخر ، وربما أركب حماراً وجعل وجهه الى ذيله . كذلك كان الملعب متحفاً فيه روائع فن النحت القديم ، حيث كان رجال الكهنوت في الكنيسة المسيحية ، وقد رضوا عما يجري في الملعب كان الملعب مرآة للعالم البيزنطي .

وكان للرجل البيزنطي بطلان هما : الفائز في سباق العربات ، والقديس المتشف . أما الأول ، فكان تنصب الصور والتماثيل اجلالاً له في كل مكان ، وكان سائق عجلة السباق يمنح امتيازات خاصة ، فكان في نجوة من كل عقاب بدني ، واليه كان رجال الأدب يرفعون أحسن مقطوعاتهم .

أما المتشف الزاهد ، فكان الحجاج يأتون اليه من كل صوب ، يحدهم شوق لاهف ليروا القديس على عوده ، وينالوا بركته ، ويلحوا معهم تماثلاً صغيراً من تماثيل الرجل الطاهر ، التي كانت تصنع لتباع بالجملة لكل من يطلبها من الاتقياء . وهذا التمثال مع القنديل المعلق به ، كان يحيي دكان المتبرك وبيته من كل أذى ، ويعطيه ثقة جديدة وشعوراً متجدداً بالاطمئنان وسط أخطار الحياة .

وكان هناك وحدة في الأسرة واخلاص متبادل بين أفرادها . والمرأة ربة البيت ، ولها هوذها الملموس في مجال عملها على زوجها وأطفالها . وكانت البنت تتزوج في سن مبكرة ، وكان اختيار الزوج ما تعنى به الأسرة ، وقلما كانت البنت ترى زوجها قبل الزواج . على أن المرأة البيزنطية لم تكن

سجينة بيتها على أية حال ، على الرغم من أن الحرائر المحصنات لم يكن يرتدن دور التثيل . وكانت نظرية الروم عن اليادة لاترى غضاضة في زواج الأمير بأمرأة لايجري في عروقتها دم الملوك ، بل كثيراً ماكان النسل الامبراطوري يتقوى باختيار عروس من الطبقات المتوسطة ، حتى كان الامبراطور أحياناً يتخب شريكة حياته من بين سرب المذارى الجميلات اللواتي اتقين من الولايات لتلك الغاية (٦٢) .

### ٣ - اليادة البيزنطية :

جمعت السلطة النافذة داخل حدود الامبراطورية البيزنطية في شخص الامبراطور ، فكان هو مصدرها الأوحد . ولكن ظل حق الامبراطور في العرش يخضع للانتخاب مليلة تاريخ الامبراطورية ، فكان مجلس الشيوخ والجيش ينتخبان الحاكم : الجيش يارس حقوقه الوراثة في تنصيب الملوك ، والشعب يؤيد ذلك ، فكان باستطاعة مجلس الشيوخ أو الجيش أن يتقدم أحدهما فيعين مرشحاً ، ثم يزيه الطرف الآخر . أي أن انتخاب الامبراطور كان يمر بالأدوار التالية : (١) ينادى مجلس الشيوخ أو الجيش بوضع المرشح «في وضع دستوري يجعله في مكان الامبراطور المنتظر ، على أن يكون من الجائز بعدئذ تثبيت ذلك أو الغاؤه» . (٢) أن يوافق الطرف الآخر على ذلك ، لأنه يملك الحق ذاته في الترشيح . (٣) التصديق على هذا الاختيار حين يهتف الشعب الروماني الذي يجتمع عادة في ميدان السباق (٦٣) . (٤) بتويجه

(٦٢) انظر التفاصيل في كتاب : الامبراطورية البيزنطية (١٦ - ٢٩) .

(٦٣) كان تتويج الاباطرة منذ القرن السابع بجرى في الكنيسة الكبرى ، ويحضره أعضاء مجلس الشيوخ وممثلون عن الجيش والشعب الذي يهتف للامبراطور داخل الكنيسة وخارجها ، وكان التتويج قبل القرن السابع بجرى في ميدان السباق خارج المدينة .

بالتاج على يد البطريرك الأعلى قائماً بتثيل المنتخبين لا الكنيهة ... وقد جرت العادة بذلك وإن لم يكن شرطاً أساسياً .

تلك هي الاجراءات التي ينص عليها التقليد الدستوري في منح السلطان لأحد من الناس ، لكنها لا تكفل له سوى لقب بشرى . بيد أن عرش الامبراطور كان يقوم على أسس أكثر رسوخاً ، فالامبراطور صفي الاله ، وقد وقع عليه الاختيار منذ ولادته لتحقيق ارادة السماء ، وإذا فالمرشح الناجح هو بالضرورة من اختارته مشيئة الله ، بغض النظر عن الطريقة التي اكتسب بها هذا النصر ، فنجاحه هو الموسوغ الوحيد ، وهذا النجاح يطمس صفحة ماضيه ، وهو الأساس الذي يلزم الناس بطاعته .

وإذا فمن الواضح أن الامبراطور ملك كاهن ، ومنصبه كهانة ملكية ، وما الامبراطور الا أحد رجال الدين ، فهو يستطيع أن يدخل المعبد المقدس ، ويقرب من المذبح حيث لايسمح لأحد من العلمانيين (غير رجال الدين) بالمرور . وفي استطاعته أن يقبل ستار المذبح ، وأن يتناول بيده الخبز المقدس . وعهدت له العناية الالهية - كما عهدت لبطرس من قبل - في رعاية أتباع السيد المسيح ، ولكن يظهر هذا الجانب من كهانة الامبراطور بوضوح أكثر ، أضيف منذ القرن التاسع الميلادي - على ما يظن - عمل آخر رمزي في حفل التتويج ، الا وهو أن يقوم البطريرك بسح الامبراطور بالزيت المقدس ، ولم يكن يعبر بذلك عن ارادة الدولة ، بل عن المشيئة الالهية .

غير أن النظرية (الالهية) في أصل الملكية كانت تحمل في طياتها نتيجة أبعد مدى ، فمصدر الرفعة هو الله يعز من يشاء ويذل من يشاء ، وإذا فالعرش الامبراطوري مباح للجميع ، فلاحهم ونبيلهم ، جاهلهم وعالمهم ، على السواء ، غير أنه اشترط في الامبراطور أن يكون مسيحياً ، وأضيف بعد ذلك أن يكون

## الواء الركن محمود شيت خطاب

مسيحياً أرثوذكسياً ، وفيما عدا ذلك يمكن لأي واحد من الناس أن يقع عليه اختيار الله عظيماً كان أم حقيراً غنياً أم فقيراً .

بيد أنه لم يكن هناك من سبيل دستوري لاسقاط الامبراطور بعد انتخابه سوى ثورة ناجحة ، وهنا أيضاً لا يحول اختيار العناية الالهية له ، دون أن يعتبر مجرد غاصب في حالة اخفاقه ، وإذا فالثورة تصبح مشروعة ، بل وجزء من الدستور المعمول به .

بيد أن اختيار الأباطرة بطريق الانتخاب وحده ، لم يكن ليضمن للناس سير الأمور سيراً حسناً ، مادام اغتصاب العرش مباحاً في هذه الدولة ، ولا يعتبره الناس خيانة الا في حالة الاخفاق ، ثم اتنا لا ينبغي أن ننسى أن هذا الاغتصاب كان يدعم القوة الامبراطورية في بعض الأحيان . ومن ثم عدلت النظرية الرومانية القديمة - فيما يختص بطريقة اختيار الحاكم الأعلى للدولة - كما يلي : ان تفويض الحكم للامبراطور ، يخوله حق تنويع خلف له أثناء حياته ، ويظل مستبداً وحده بالسلطان طالما بقي في قيد الحياة ، رغم وجود خليفة الى جواره ، فاذا توفي انتقل السلطان الى خليفته من تلقاء نفسه .

وهكذا فقد المنتخبون حق الانتخاب ، ولم يبق أمامهم الا ان يجوبوا الحاكم الجديد ، قائلين : « مات الملك ، يحيا الملك ا » .

وقد كان ما يميز الأباطرة الشرقيين العسكريين كفايتهم العسكرية كقادة للجيوش في ميادين القتال .

ولم يكن الامبراطور ملك الملوك (٦٤) ، كما كان يسمى رسمياً بعد سقوط الامبراطورية الساسانية ، التي كان كسرى المنازع الوحيد له في هذا

(٦٤) اي الباسيليوس Basileus

اللقب ، فقد قال المسيح : « انه وارث هذا العالم » ، فعلى نائبة - وهو الامبراطور - أن يرعى ادخال العالم في دائرة ملكه . أليس هو الآخر مخلصاً للعالم ؟ أليست قوته هي المدبرة له ؟ اذا فهو الحاكم الأعلى ، وله الحق في السيادة على العالم كله .

ولم يكن الأمر ليقف الى هذا الحد ، فانه لما كانت ملكة الأرض مصوغة على مثال ملكة السماء ، اذا فهي ليست عالية فحسب ، بل خالدة أيضاً ، وليس باستطاعة بشر أن يقوض دعائها . أما الأباطرة الفاسدون ، فليوا الا عقاباً الهياً للناس ، حتى اذا انتهت مدة عقاب البشر ، وتاب أهل البلاد عن خطاياهم ، أشرفت شمس رحمة الله مرة أخرى ، وهكذا تصبح المسيحية مصدراً دائماً لبعث جديد ، وكانت هذه العقيدة راسخة قبل المسيحية في رومة ، فاستحال ذلك الى عقيدة دينية .

وإذا كان الأمر كذلك ، فما هي القيود العملية والنظرية التي تحد من ادعاء الأباطرة السيطرة على الكون ؟

بالرغم من أن الامبراطور هو المشرع الأعلى ، وبالرغم من أنه لايسال عما يفعل ، فقد كان عليه لهذا السبب ذاته أن يلزم نفسه ببراءة القوانين . ولا تنسى أولئك الذين كانوا يحيطون بالامبراطور ، فهم رجال فقهوا التقاليد المحافظة ، تقاليد هيئة الحكم الشديدة التعقيد . وقد أصبح مجلس الشيوخ - اذا استثنينا ممارسته لسطته القديمة في تنصيب الملوك - مجلس حكام يفضلون السبل المطروقة ، ومن المؤكد أن الأباطرة لم يعدوا كثيراً من الحكماء والناصحين ، وجدوا من الحكمة ما جعلهم يأخذون بنصحتهم .

وقد كان سكان العاصمة أيضاً الى جانب حرس المدينة الرسمي ، حتى القرن السابع الميلادي على الأقل ، يكونون قوة فاعلة ، وكانوا على قوة تمكنهم

## الواء الركن محمود شيت خطاب

من الاخلال بالأمن اذا ما فقدوا سيطرتهم على أنفسهم ، وعلى استعداد لتقديم مرشح آخر ينافس صاحب العرش ، ونشر الفوضى عن طريق الحرق والقتل . والظاهر أنه حين خمدت المقاومة الشعبية المنظمة لارادة الامبراطور زمن بيت هرقل ، أقام الرهبان أنفسهم نواباً للشعب ، وحلوا لواء المقاومة ضد الأباطرة ، واستطاعوا أن يعتمدوا على مؤازرة الأتقياء ، وأثبتوا أنهم خصوم أشد خطورة على الامبراطور من البطريك الذي كان بإمكان الامبراطور أن يعزله . واستطاع الجيش أيضاً أن يوقف بعنف أي اجراءات لا يرى تنفيذها ، اعتماداً منه على قوته .

الا أن هناك قيماً آخر أعقق ما ذكرناه ، ذلك هو التأثير الخفي لتقليد يفترض في الأباطرة : (حب الخير للناس) ، يحتم على الامبراطور اسداء خدمات انسانية جليلة لشعبه ، وكان هذا المثل الأعلى - في الواقع - قوة كابحة لجناح الامبراطور .

وأخيراً ، كان المتخبون ، قبل أن يوافقوا على منح أحد من الناس السلطة الامبراطورية ، يستخلصون منه وعداً صريحاً بمرعاة ذلك . ومع مضي الزمن ، أخذ الامبراطور عند تويجه يقسم قسماً رسمياً ، يبدأ بالاعتراف بالمعقدة الأرثوذكسية ، ويتضمن توكيداً منه لمنشورات بطارقة العالم البجة ومجامع دينية محلية أخرى ، وحقوق الكنييسة وامتيازاتها ، وبعد بأن يظل خادماً مخلصاً للكنييسة المقدسة ، وابناً باراً بها وحامياً لها ، ويأخذ عهداً على نفسه بأن يظل انسانياً في حكمه لشعبه ، عادلاً بينهم ، وأن يتجنب توقيع عقوبات التكيل بالناس أو الحكم بالاعدام ما استطاع الى ذلك سبيلاً . . . وصيغة القسم من الأهمية بمكان ، بحيث تظهر لنا ماكان يتطلبه البيزنطيون من حاكمهم .

وكانت قواعد السلوك في البلاط صارمة ، وفيها وصف دقيق مفصل للادوار التي تقوم بها كل طبقة من الهيئة الحاكمة الامبراطورية في سلسلة الاستقبالات والاحتفالات التي كانت تكون : (السنة المسيحية) البيزنطية . وفيها ذكر مفصل للملابس والحركات ومواضعها وأوقاتها ، والكلمات الرسمية التي جعلتها العادة مع مرور الزمن مقدسة .

ولتصور زعيماً بربرياً من أحد السهول أو الصحارى ، وصل الى البلاط البيزنطي ، ونزل في ضيافة القصر ، وشاهد عجائب العاصمة في رعاية موظفي الامبراطور ، كان عليه أن يمثل بين يدي الامبراطور ، تراه يمر في متاهات من الدهاليز الرخامية ، وغرف غنية بالضيفاء والأردية الذهبية ، وبين صفوف حرس القصر الذين يرتدون زياً أبيض واحداً ، يحف به النبلاء والأساقفة والقادة وأعضاء مجلس الشيوخ ، بينما يعزف أرغن الكنيسة ، تصاحبه فرق المغنين بالكنيسة والخصيان ، ثم أخيراً يجد مبهوراً بهذه الضخامة التي بغير حدود ، في حضرة الامبراطور الصامت الوقور ، سيد رومة الجديدة ، ووريث قسطنطين ، وهو متربع على عرش القياصرة . وقبل أن يسمح له بالنهوض ، يرى الامبراطور وقد تغيرت حلته والعرش وقد تبدلت زينتته التي رآها حين نظر اليه آخر مرة . . . يرى الامبراطور وهو ينظر اليه كما ينظر الاله الى واحد من البشر . ترى ، من ذا الذي يسمع زئير الأسود الذهبية حول العرش ، وتفريد الأمليار ، ثم يستطيع بعد ذلك أن يرفض أوامر الامبراطور ؟ وعلى هذا النحو يطويه الامبراطور تحت جناحه ، ويعارب من أجل المسيح الروماني وامبراطورته ، وتمتدق عليه الامتيازات والهبات والهدايا من أجل وعده بالدفاع عن الحدود ، وربما منح مركزاً رسمياً في الحكومة ، فيصبح نبيلاً أو قائداً في الجيش ، وربما حالفه الحظ فتكون ماعدته ذات قبة كبيرة للامبراطورية ، فيوعد عندئذ بتزويجه من أميرة بيزنطية ، كما فعل هرقل مع

## اللواء الركن محمود شيت خطاب

زعيم الخزار ، فيعتقد المسيحية ، وسيقوم الامبراطور نفسه بدور الأشبين عند الحوض المقدس ، ومن ثم يتدب أحد الأساقفة من أتباع بطريرك القسطنطينية للاشراف على مصالح الروم في بلاده . وفي حالة قيام شعبه ضده وإسقاطهم له ، يسمح له بالالتجاء الى الامبراطورية ، ومن ثم يعاد بحراب الروم الى مركزه ، وفي هذه الحالة لايتقى عند رجال الدولة ريب في اخلاصه . ومع أنه لم يكن للامبراطورية ممثلون دائمون لدى الحكومات الأجنبية، الا أن بعثاتها كانت تتوالى ، فتحفظ تقاريرها في ديوان الرسائل الامبراطورية (٦٥) .

## ٤ - الكنيسة الأرثوذكسية :

لم تكتب الحياة لطقوس رومة الشرقية فحسب ، بل احتفظت الكنيسة حتى اليوم بطبيعتها التي اكتسبتها أيام الأباطرة المسيحيين : فأراء هذه الكنيسة في اللاهوت ، وشعائرها ، وصيغها التي كانت تلقى أثناء المراسم الدينية ، ولون حياة الرهنة والتشف ، وقديسوها وأعيادها ، ذلك كله تراث من أيام البيزنطيين ، لا تزال تبقي على سلامته روح المحافظة التي لاتلين .

أصبحت القسطنطينية في عصر قسطنطين مدينة مسيحية ، الا أنها ظلت فيما يختص بحق التشريع الكني تخضع لأسقف هرقل ، ونجد أن التاريخ الداخلي للكنيسة بعد أن اعترف بها مجلس الشيوخ ، يكاد يكون سرداً لجهاد أسقف القسطنطينية في سبيل الظفر باستقلاله عن مطران هرقل من جهة ، وفي سبيل سيطرته على منافسه في الاسكندرية من جهة أخرى . ولقد خرج بطريرك رومة الجديدة منتصراً ، وشاركه الامبراطور هذا النصر ، فقد رأس

(٦٥) انظر التفاصيل في كتاب : الامبراطورية البيزنطية (٧٣ - ١٤) .

جستيان الكنية كلك كاهن ، وأصبحت عاصمته مركز حياة الكنيسة وتنظيمها .

وكان إذا رغبت إحدى الأسقفيات في تقديم نفسها على غيرها من مثيلاتها، نظر الناس فيما إذا كانت قد أسست على يد أحد الرسل ، وكان هذا المقياس المعترف به في تقديم الكنائس بعضها على بعض . أما الشرق ، فقد حاول أن يجد تويفاً لهذا النظام ، وانتهى إلى النظرية القائلة : بأن أسبقية المدينة في الميدان الكنسي لا بد أن تقوم على أسبقيتها في الميدان المدني . وسعت بيزنطة بعد ذلك إلى الانتصار على رومة . بحجة أخذتها من منطلق رومة نفسها ، فإذا كانت رومة تقول بأن القديس بطرس هو مؤسسها ، فقد اكتشفت زومة الجديدة أن باستطاعتها في اعتمادها على تزوير وقتي ، أن تدعي أن القديس ادريس ( اندرياس ) هو مؤسسها ، والقديس ادريس هو الذي أحضر بطرس إلى المسيح لأول مرة . غير أن مساومة المجمع الديني العالمي الثاني الذي عقد في القسطنطينية سنة ( ٣٨١م ) ، اعترفوا بالنظرية القديمة اعترافاً صريحاً ، وحكموا لأسبقية العاصمة بالمكان الأول في الكنية الشرقية بعد السدة الرسولية في رومة : « لأن القسطنطينية هي رومة الجديدة » ، وبذلك تحررت مدينة الأباطرة من سيطرة هرقل .

وقد نشأت خصومات داخل الكنيسة ، نتيجة لتصميم أساقفة الاسكندرية على أن يستخدموا تأثيرهم وسيطرتهم في مقاومة قوة القسطنطينية الكنسية الناشئة ، وقد اتصرت الاسكندرية ثلاث مرات على القسطنطينية<sup>(٦٦)</sup> ، وأخيراً هزمت الاسكندرية في مجمع خلقيدونية سنة ( ٤٥١م ) ، لأن البابا والامبراطور صمما على تحطيم كبرياء مصر ، لكن بطريرك الاسكندرية لم يذعن ، فخلع

(٦٦) انظر التفاصيل في كتاب : الامبراطورية البيزنطية ( ٩٦ - ١٠٥ . .

## الواء الركن محمود شيت خطاب

وشي ، وكان هدف مجمع خلقيدونية انتصار القسطنطينية والانحياز الكلي للكنيسة الشرقية .

وأجاز المجمع الصيغة الغربية التي تقها البابا ليو الكبير واوردها في رسالته العقيدية المائة : Tomos حيث قال : « هناك طبيعتان يجب تميز احداها عن الاخرى في المسيح حتى بعد تجسده وهما الالهية والانسانية ، وقد ظل الاختلاف بينهما باقيا بالرغم من وحدة الشخصية » . وكانت وجهة النظر اللاهوتية عند الاسكندرئين تتجه دائما الى الصوفية والرمز ، وتؤكد طبيعة المسيح المقدسة ، حتى انها تهمل طبيعته البشرية ، وهكذا ابتلعت الناحية المقدسة الجانب البشري ، وبذلك وصلت الكنيسة المصرية الى اعتقادها بطبيعة مقدسة واحدة . وهكذا وقت الفثة التي أسست الكنيسة القائلة بطبيعة واحدة صفاً واحداً في مقاومة التعريف الذي انتهى اليه مجمع سنة (٤٥١م) وفي نذ عقيدة البابا ليو الكبير ، وعلى هذا فقد انتهى بالناس الى الحرب لا الى الصلح .

لقد وحد منشور ( زينو Zeno's Henoticon بين الكنائس الشرقية سنة (٤٨٣م) ، الا أن ثن ذلك كان الانشقاق عن رومة سنة (٤٨٤م) ، كما أسس يعقوب البردعي ( Jacobus Baradaeos ) أسس الكنيسة اليعقوبية المستقلة في حكم جتنيان . وسعى بيت هرقل مرة أخرى لايجاد اتحاد مع أصحاب العقيدة المقدسة الواحدة غير أن العقيدة القائلة بالقوة الناشئة عن طبيعة واحدة أو ارادة واحدة في المسيح المتجد لم يكن باستطاعتها الثبات طويلا ، ولم تكف هذه المعضلة عن ازعاج سياسي الامبراطورية البيزنطية ، الا حين استولى المسلمون على سورية ومصر مؤثرل الهراطقة ، واستطاعت الامبراطورية بعد ذلك أن تكون أرثوذكسية ، وهكذا استطاع جتنيان الثاني

أن يمدد الصلح مع رومة .

وعندما أصبحت البطريركيات الرومانية الشرقية اسقفيات في بلاد المسلمين ، بقي بطريرك القسطنطينية بلا منازع ، وأصبح تشريعه يسري على الامبراطورية ، الا أن بطريرك العاصمة عاش في ظل القصر الامبراطوري . وكان اخفاق بابوات الغرب في نزاعهم مع كنيسة القسطنطينية ، قد علمهم كيف يحلون المعضلة الدوناتية (٦٧) ، ولم يعد امبراطور الدولة البيزنطية يستطيع بعد ذلك أن يترك للسلطات الكنيية حكومة الكنيسة غير المنظمة ، فقد أبان منشور الامبراطور الذي دعا به الى عقد مجمع نيقية ووجهه لخلفائه ، الطريق بحيث لم يعد بمقدور أي بطريرك لرومة الجديدة أن يقاوم الارادة الامبراطورية ، وتوالت التشريعات في محاربة الهرطقة من جهة والوثنيين من الخلقيدونية ، واتتصار فكرة توحيد الكنيسة ، ختاماً للنزاع الذي قام من أجليادة داخل الكنيسة الشرقية .

وشهد القرن السادس الميلادي آخر هجوم شن على الوثنية الباقية في الامبراطورية ، وتوالت التشريعات في محاربة الهرطقة من جهة والوثنيين من جهة أخرى خلال أكثر من مائتي سنة ، واستعمل قسطنطين العنف في القضاء على الدوناتيين الافريقيين بحجة أنهم مهددون للامن أكثر منهم مارقين على العقيدة . وجعل بين السلطة وبين الاشرراك لوظائف الكنيسة ، وهوا من القسطنطينية وحرم على الوثنيين حق الوراثة والتوريث ودخول وظائف البلاط والجيش ، وجرى الهرطقة أيضاً من حق دخول الجيش . وبالرغم من أن

(٦٧) الدوناتية : فرقة نصرانية ظهرت في افريقية في العصر البيزنطي ، وهي منسوبة الى اسقف يسمى : دوناتوس ، عارض اسقف قرطاجنة ، والتف حول طائفة من القواسمة ، وتكونت منهم فرقة دينية ، ظلت تناوى كنيسة قرطاجنة حتى ايام جستنيان .

## اللقاء الركن محمود شيت خطاب

الهراطقة كانوا يؤدون ما يقع على غيرهم من المواطنين من أعباء ، فقد حرم عليهم التمتع بامتيازاتهم • وحرمت عليهم قوانين جستيان الاشتغال بالمهن الحرة ، بل تقرر هدم كنائسهم ، وأغلقت دونهم الاجتماعات العامة ، وأصبحت شهادتهم القانونية ضد الأرثوذكسين غير مقبولة ، وأضحت وصاياهم لاغية ، وفقدوا ما يخولهم حق الوراثة ولو بوصية اختيارية ، وحق وراثة شخص توفي دون أن يوصي ، فأصبح المشتق عن الكنيحة منبوذ المجتمع • وكانت سياسة جستيان فيما يختص بالمانويين ( أتباع مذهب مانئي ) مياسة إبادة ، فخصائص الروح فوق خصائص الجسد ، وإذا يجب القضاء التام على كل ما من شأنه أن يسبب العدوى •

ويسكن تلخيص آراء جستيان في الحكومة بالعبارة الموجزة : حكومة واحدة ، وقانون واحد ، وكنيسة واحدة •

وقد صدرت سلسلة أخرى من القوانين ضد الوثنية ، وأدخل في القرن السادس الميلادي ألوف من الوثنيين في المسيحية قرأ دون أن يعتنقها فعلا • وتبع عن تلك التشريعات دخول كثير من غير المسيحيين في المسيحية ، بيد أن الغالب من هؤلاء المنتصرين الجدد كانت رهبتهم للاله المسيحي ناتجة عن خوف من الناس ، في حين ظلت قلوبهم في وادٍ آخر ، إذ ظلت على ولائها للعقيدة القديمة •

وهكذا انحطت المقاييس الأخلاقية والدينية داخل الكنيحة ، وشعر الناس أن الحياة المسيحية أخذت تفقد مثلها العليا المشددة ، فأخذوا يجاهدون في سبيل الافلات من عالم لا يحتل في نظرهم ، وامتلأت صحارى مصر بطالبي العزلة الذين يبعون الوصول الى الله ، غير أنهم لم ينفصلوا عن الكنيحة المنظمة اتصالاً فعلياً ، لكنهم كما اتفهم بانفسهم ، وكانوا في غنى عن حظيرة

الكنيسة . وهكذا قامت الرهبة منفصلة عن الكنيسة ، وكانت من ناحية احتجاجاً فردياً على نظام قام بأكبر نصيب في تأييد الدولة . ولما كانت الكنيسة تسعى لتركيز سلطاتها في ادارتها الداخلية ، فقد قررت أن تحول دون بقاء أية حركة دينية خارجة عنها ، ولا مفر لأي لون من ألوان التدين من أن يؤيد قضيتها ، وإذا كان لابد من تكييف الحركة الجديدة بما يلائم أغراض الكنيسة ، فإنها - أي الكنيسة - كانت متمدة لترتيب معونة مالية مؤقتة توصلها الى أغراضها ، فإذا لم يخضع الميل الجديد الى التشف لادارتها ، أصبح من اللازم عليها تحطيمه ، وأصبح على الزاهد أن يتصل بأولئك الذين يشاركون الاعتقاد بمثله العليا ، إذ أن ذلك يفسح المجال أمامه لممارسة فضائل المسيحية .

ومهما يكن من أمر ، فإن مساكنهم التي اتخذوها لتسكنهم في الكهوف المنعزلة أو جعلوها معلقة فوق صخور الجبال ، هو الذي ايقظ الشهور بالاجلال والرهبة والحاسة العاطفية في نفوس عامة الشعب ، ففرع الحجاج من الشرق والغرب لالقاء نظرة على القديس العمودي الذي قضى سنين طويلة على عبوده ، حتى فقد القدرة على الوقوف ، وأصبح لا يعينه على الوقوف سوى الرباط الذي يسكه بعبوده .

وسعت الكنيسة مرة أخرى لتحويل هذا التنسك المحبب الشائع لخدمة أغراضها بشتى الوسائل ، فكان نجاحها في هذا المجال محدوداً .

وقد رأينا أن الحاج الى الأماكن المقدسة كان يعود حاملاً معه تمثالا أو صورة للقديس ، وربما كانت هذه المادة من العوامل التي أعانت على تقوية عبادة الصور التي نشأ عنها نزاع اللاصورية الذي طال أمده .

وقد ضاعت كتابات اللاصوريين ، ونتطيع أن تبين أسس مهاجرتهم لعبادة التماثيل ما كتبه خصومهم . فلم يكن محطو الصور من أنصار المذهب

العقلي ، بل كانوا مصلحين دينيين ، فكانوا ينظرون الى شعور الناس بالتقديس نحو الصور والتماثيل فظرتهم الى عبادة الأصنام أو نوع من أنواع الوثنية .

ولم يكن عباد الصور أقل اخلاصاً لمبدئهم ، فالواقع أن كثيرين منهم ظفروا للنزاع على أنه جهاد للبقاء ، فشرع صناع الصور المجيدون أن الخطر يتهدد مورد رزقهم ، لأنهم كانوا يعيشون من رسم الصور المقدسة . وظل بعض أنصار الصور ينافحون عن مبدئهم بحجة كان الشرق يقول بها في وقت مبكر منذ القرن الرابع الميلادي ، وأخذها الغرب فيما بعد ، الا وهي أن الصور المقدسة انجيل الجاهل ، فالصور ما هي الا مذكر ، وهي للنظر بمثابة الكلمات للاذن ، مهتها الافهام والتقريب .

وأخيراً ، انتصر عباد الصور ، وعاشت الصور المقدسة في الكنائس بخاصة والأماكن العامة أيضاً .

وبقى هناك موضوع الخصومة مع رومة ، فقد اتسعت الهوة بين الشرق والغرب مع السنين ، حتى لقد انقطعت الصلة بين البلاطين الشرقي والغربي في أوائل القرن الخامس ، الا أن يكون بعض ما كان يشور بينهما من نزاع في اتصال أحدهما بالآخر اتصال عداء ، فكانت مشاكل الغرب والشرق في هذا العصر اللاهوتي مختلفة ، حيث أن نزعات قواد كنيسة الغرب كانت عملياً تدور حول علاقة الانسان بالله ، فكانت مسائلهم تختص بتخليص الانسان أو تحريره من ارادته الانسانية ، ومضوا تحت تأثير أوغسطين ينشئون لعقيدتهم ظلاماً خاصاً مقتناً . أما النزاع في الشرق فيدور حول علاقة أفراد الثالوث المقدس بعضهم ببعض ، ودار فيما بعد حول الطبيعة المزدوجة لابن الاله المتجسد . وكانت رومة هي الملجأ الأخير الذي تطلب عونته كل طائفة قليلة مغلوبة على أمرها في الكنيسة الشرقية ، وكان تدخل الغرب على ذلك في ظفر الأكرية

تدخلا تنظيما من شأنه أن يقوم هرطقات الشرق ، فلم تكن كنيسة رومة على وفاق مع كنيسة القسطنطينية خلال نصف مدة القرون الخمسة التي تقع بين وصول قسطنطين للعرش والمجمع الديني العالمي السابع الذي عقد سنة (٧٨٧م) .

وكان اختلاف اللغة بين الكنيستين أهم من ذلك كله ، فبينما كانت رومة الجديدة تقوم في وسط يتكلم اليونانية ، كانت ايطالية في القرن الرابع الميلادي لا تعرف اليونانية ، بل تتكلم اللاتينية ، فكانت رسائل البابوات للجامع الدينية الشرقية تقرأ أولا باللاتينية ثم تترجم الى اليونانية لكي يتسنى لرجال الدين الشرقيين فهمها ، وكثيراً ما كانت تترجم ترجمة خاطئة .

ان الشرق والغرب لم يستطيعا التفاهم ، لأن كلاهما يجهل لغة الآخر .

ولم يكن كبار البطارقة البيزنطيين في الحقيقة على استعداد لأطاعة ما تمليه رومة ، فاتهمزوا بشوق فرصة اكسابهم محبة الشعب، وهاجموا مزاعم البابوية . ولما كان البطريرك والبابا شخصيتين بارزتين في الوقت نفسه ، فقد نتج الانشقاق الديني عن ذلك . وكانت رومة كثيراً ما تلقن القسطنطينية درسا في موضوع الأرثوذكسية ، ولكن بيزنطة حرصت على أرثوذكسيتها الخاصة بها ، واستطاعت أن تدافع عنها في وجه الغرب .

وقد خان الوقت لتبين نواحي القوة والضعف في الكنيسة الأرثوذكسية .

ان تدينها يفرنا حين نقرأ أدبها اليوم ، اذ انها علقت أكبر قيبة على فضيلة البكاء ، مدفوعة الى ذلك بشعور متجدد بالخوف من الخطيئة ، وفيض الدمع انما هو تأثير نفسي خاص بصاحب الترتيل العاطفي بشكل رئيس . وان الانسان يشعر أن فضيلة رجل الكنيسة البيزنطي ، انما كانت صادرة عن الامل بالجزاء في العالم الآخر . كما أن الكنيسة الشرقية أخذت تشك في القيم

## اللواء الركن محمود شيت خطاب

الانسانية وتسمى لكتبتها ، فقد اعتبرت الأدب الكلاسيكي القديم خطراً واعتبرت تلميذ أفلاطون في عداد الهرطقة ، وكان يعد خائناً . وكانت الكنيسة افرقية ، فرضت اللغة الاغريقية على أتباعها ، وهكذا قضى على لهجات آسيا الصغرى الوطنية . وقد انقذت الكنيسة الامبراطورية البيزنطية ، ومالت في آخر الأمر الى السعي للتوفيق بين رغباتها ورغبات الدولة ، ولم تكن تفرض على الداخل في مذهبها أعباء كثيرة ، فكانت تبدي تسامحاً كبيراً فيما يختص بعقيدته وعبادته السابقتين .

ولكن يجب أن نقرر أنها حددت للعالم المسيحي معاني العقيدة ، وإذا كانت كنيسة تابعة للدولة الى حد بعيد ، فقد كانت مشبعة بروح تبشيرية ، ونجد أن جميع الفنون البيزنطية التي كتب لها البقاء ذات طابع كنسي . وإذا كانت هذه الكنيسة قد خضعت للدولة ، فإن من رجالها من عانى التشريد والعذاب والتكيل من أجل العقيدة . وقد احتفظت الكنيسة في القرون المظلمة بجذوة الهيلينية حية تحت الرماد ، ولا تزال تلك الكنيسة على ولائها لاهدافها التي وضعتها منذ قرون خلت حتى اليوم .

للبحث صلة